



دنيا جديدة

محمود تيمور

دُنْيَا جَلِيلَة

مكتبة الطبع والنشر
مكتبة الآداب وطبعتها بالجمهورية ١٩٧٧

المطبعة النموذجية
٦ مكتبة الشريعة بالقاهرة الجديدة

دنيا جديدة !...

غادر المنزل وقد بنى عزمه على أن ينفذ فكرته !...
وسار في الطريق زائع النظرات ، وفي رأسه أتون يتأجج .
ولكن خطواته كانت متلاحقة بحكمة تدل على عزيمة واقتدار ؛
كانها خطوات جندي ماضٍ إلى حكومة القتال !...
إنه يشبه الجندي فيما يقصد إليه ، من أداء مهمة وخوض
معركة ، ولكن الفارق بينهما أن الجندي يمضي وهو في فسحة من
الآمل ، أن يعود ظافراً ، يعانق الحياة ، ويقتطف ما فيها من متع
ومباهج !... أما هو ، فيسير في مثل صلابة الجندي وعزمته ، يَئِدُ
أنه يعلم علم اليقين أن ذهابه إلى غير رجعة ... خوض معركة
يخرج منها مهزوماً ، قد طواه الردى !...

ولكن كيف يعد نفسه مهزوماً ، إذا انتحر ؟...
أليس الموت ، في حقيقة الأمر ، أكبر انتصار على الحياة !...
وماذا لقي من هذه الحياة ؟... إنها لخرابة خيشة ، طالما غادته
وغررت به ... هذه الحياة لقد كانت تتفنن في الكيد له ، وتسخر
من إخفاقه ، وتذيقه ألواناً من التعذيب والإيلام !... هذه الحياة

لقد كانت تركله وتطأوه ، فينهض عنى الظهر ، معفر الوجه ، ليخفف.
هامته ثانية لذلك الجنية اللدود ؛ فلا تلبث أن تنحنى عليه بسياطها.
حتى يخرج متخذا بجراح الحية والإذلال ...

هيات للحياة أن تنال منه منالا بعد اليوم ... إنه سيقف.
أمامها وجها لوجسه ، ويقول لها : لن تستطيعى منذ الآن أن
تستعبدنى وتستمرئى شقائى ... كلا ، لن تستطيعى أن تفعلى
شيئاً معى ... ستقفين أمام رفاقى ، قليلة الحيلة ، عاجزة الوسيلة ...
مهما تحاولى فليس فى مقدورك أن تلحقى بى أذى ... إنها
ساعة انتصار لى ... أليس الموت فى حقيقة الأمر أكبر انتصار
على الحياة ؟ ...

وحت خطاه إلى حيث ينفذ ففكرته ... ولكن أية جهة
يختار ؟ ... إنه يدرى إلى أى ميدان يذهب ؛ ولكنه لا يدرى.
أى مكان فى هذا الميدان يحل فيه ؟ ...

بأى أسلوب ينتحر ؟ ...

ما أكثر الوسائل ... أينختار « الترام » ؟ ... ومثل فى ذهنه
« الترام » ، وهو يقطع الطريق مثقلا براكيه ؛ كأنه أتان حُبلى
مكدودة ... أتان عجفاء نخرة العظام ... أيسلم لهذه الأتان رقبتة
طائعا مختارا ؟ ... أرضاها لنفسه جلاداً ؟ ...

هناك السم الزعاف ... هناك المدية الماضية . هناك أفانين بما
يكفل له بلوغ مأربة المنشود ... وأشرق وجهه بفتحة إشراقة
الظفر ... لم لا يكون النيل جدته العظيم ؟ ... هذا الإله القادر ،
الذى يتدفق منذ الأزل ، يشق الصحراء الجرداء ، فيحيلها جنات
فياحة ناضرة ... إنه ليلق بنفسه عن طيب خاطر في هذا الفيض
الزاخر بالخيرات ... ما أسعده حقاً إذ يشعر بأن ذراعي هذا
الآب الشفيق ، تضمانه إلى صدره فتخفيانه ؛ فلا يلبث أن يفنى
فيه ... أى فخر أعز من أن يغدو جزءاً من ذلك الإله في قوته
وعظمته ، يشاركه فيما يغدق على البلاد من نعم وبركات ؟ ...
لقد جرب حظه في الحياة مرات ومرات ، فباء بالإخفاق
المر ... هو الإخفاق دائماً ... ذلك الوحش الهائل الذى
تجمعت فيه كل مظاهر القسوة والعنف ، ذلك الحيوان الضخم ،
الذى يماثل الحيوانات المنقرضة ، التى عاشت قبل التاريخ ... إنه
لليلاحة حيثما حل ، يراه تارة رابضاً أمامه ، وهو فى ساحة
الامتحان ، يرمقه بالنظر الشرر ، ويتسم له ابتسامته النكرام ،
ويكشر عن أنياب قنطرة مسنونة كرموس الحراب ... ويخيل إليه
دائماً أنه يسمع منه فحيحاً ؛ كأنه يقول له : هاأنذا لك بالمرصاد ...
هو الإخفاق دائماً ... يعاجله أبداً فى كسب رزقه ، فى تحقيق

مآربه . . . وأخيرا وقد سقط مريضاً وطالت به العلة ، كان يرى ذلك الحيوان المتقرض ، حيوان ما قبل التاريخ ، وقد أرسل خرطوميه يستنزف دمه على مهل ، ويستل روحه في بطنه . . . لقد لازمه ذلك الحيوان في مرضه ، ولم يدعه إلا خرقه إنسانية مهمللة ، لاجبوية فيه ولا نشاط . . .

ماذا يستحق في هذه الحياة أن يعيش من أجله ؟ . . . إنه يحيا في بيت خاله مع أسرته ، يحيا معهم كالغريب المنبوذ . . . طالما قرع سمعه قول خاله : لوجه الله أطعمك ، وآويك ، فألى متى ؟ . . . وطالما تعالت صيحات التذمر والسخرية ، فيخالها دخانا كثيفا ، يتعقد ويحيط به ، حتى لا يستطيع أن يتنفس . . . وهذا الحيوان المتقرض ، حيوان ما قبل التاريخ ، مترصده أبدا ، تتلاعب ابتسامته النكراء على فمه الغليظ الأدكن ، وهو يكشر عن أنيابه القنطرة المسنونة كرموس الحراب . . .

وسار الفتى ، ثم سار حتى دنا من ضفة النيل . . . إن التخيلات الشائخة ، بهاماتها الملوكية ، لترف بأغصانها ترعابا بمقدمه . . . وإن الشمس الغسارية ، بقرصها المتوهج : لكأها نار وليمة تشب لاستقباله . . . النيل . . . نعم ، النيل . . . في عبابه الزاخر يودع عالم الشر والفناء ، ويستقبل عالم النعيم والخلود ، وهو محوط

بتلك الأناشيد العذاب ، تردها له أطيا ف لا تراها العيون ؛ —
تلك الأناشيد التي لا يسمعها إلا من أقبلوا على الأبدية ، بأرواح
تخلصت من الشوائب ، وشملها الطهر والصفاء
وأصبح من ضفة النيل على قيد خطوات ، وأحس بقدميه
تتأقلان ، وقد بدأ يغشاه سحر غريب . . . واختار مكانه الملائم ..
ووقف هناك وقفته الأخيرة ، وعيناه تحدقان في الأمواج المتدفقة ،
يحاول أن ينفذ إلى أعماقها . . . ماذا وراء هذه الأمواج التي
تراقص على متن النهر ؟ . . .

وانبعشت ضجة غير بعيدة منه ، فتلفت هنية حوله . . . إنها
حركة الطريق . . . أناس بين غاد ورائح ومركبات تضج بعجلاتها
وتصبح بأبواقها . . . إنها ضجة الحياة ، ضجة الدنيا . . . وابتسم
ابتسامته هازية ، ثم عاد يحلق في الماء . . .

أحقا أن هذه الدنيا ليست جديرة أن يعيش من أجلها ؟ . . .
إن الناس من أجلها يعيشون ، إنهم يسعون إلى الرزق كادحين
مجاهدين . . . أليس هو مثلهم إنسانا ؟ . . . ألا يستطيع أن يسعى
كما يسعون كادحا مجاهدا ؟ ولكن هذا الإخفاق ، هذا الحيوان
الهائل السكريه ، حيوان ما قبل التاريخ . . . إنه رابض في طريقه يسد
عليه المسالك ، ولن يستطيع هو بنحور عزيمة أن يتغلب عليه وينحيه

عن الطريق ... أفى مقدور بعوضة أن تساور الأسد الجبار ؟ ...
إنه يشعر بالامتعاظ والتأفف من نفسه . لماذا رضى أن يكون
بعوضة ، على حين يرى الناس من حوله أسودا ضارية ؟ ...
وأطال التحديق في الماء أمامه ...

وتحفر ليقفز ، فإذا به يسمع حركة طارئة ... حركة تصحبها
همسات وأنات ... وتلفت حوله ، فتبينت عينه في ظلة الغروب
شبحا يضطرب على حافة الشاطئ . عن كذب منه ... وألقى نفسه
يكن خلف جذع شجرة ، وأخذ يرقب الشبح من مكانه ، ويحد بصره
فإذا الشبح فتاة تتعثر في خطاها . وبين يديها لفيفة تضمها إلى
صدرها ضمة رحمة وحنان ... وتوقفت الفتاة ، وأطالت النظر إلى
اللفيفة ، ثم مهدت لها مكانا بين الأعشاب النابتة على حافة الشاطئ ،
ووضعتها في رفق . وما لبثت أن انحنى عليها تقبلها في شغف ،
ونهمست بغتة مندفعة صوب النهر ... وفي لحظة هوت في الماء ،
فانبعث لسقوطها صوت مكتوم مفزع ؛ كأنه صوت وتر في
قيثارة شد إلى أقصاه حتى انقطع ! ...

وألقى الفتى نفسه بهوى حيث هوت الفتاة ، ويغوص وراءها ،
في ذلك الخصم المتلاطم ... وبعد جهد ومغالبة استطاع أن يصل
إليها ، وأن يعود بها إلى الشاطئ ، خائرة القوى ، فاقدة الوعي ! ...

وأخذ يسعفها بما هدته إليه الفطرة ، ونجح في مسعاه ؛ فإذا
الحياة تضطرب بين جوانح الفتاة . فوضع رأسها على ركبتيه ، وعيناه
تنوسمان وجهها ، وقد بدأت مواكب الليل تتزاحم إثر النهار الغارب
تطارد فلول الضوء ... ولكن تلك المواكب لم تلبث أن وقفت
خاشعة ، أمام ذلك الملك العظيم ، الذي بدأ يعلو من الشرق قرصا
أرجوانيا ، يتهادى في روعة وجلال ... فتصاغرت أمامه جحافل
الليل الزاحف ، وأخذت تتزاييل ...

وسطع الضياء الفتي على وجه الفتاة ، فإذا بمجياها هادى . لم
يزده امتقاع الإعياء إلا وسامه على وسامة . وكان شعرها البليل مسدلا
حول رأسها تقناثر خصلاته على كتفها ، وقد تدلت بعض هذه
الخصلات ، تخفى ماظهر من صدر ناهد ، كان قد شق القميص
وأسفر ...

ورفعت الفتاة جفניה ، فإذا عينان زرقاوان تماثلان زرقة
السماء الصاحية ، تختلج أهدابهما الوطاف حولهما ، كأنها أحراس
سامرون على ذلك النبع الفياض ...

ونهمزت الفتاة برأسها قليلا ؛ وهممت جزعة :

أين أنا ؟ ...

فسح الفتى على شعرها ، وقال في لهجة ظفر ووثوق :

أت في حرز أمين ...

وتلاقت عيناها في ذلك الضوء الفضي الساجي الذي يشع في
النفس الآمن والصفاء ... وجمعات الفتاة ترنو إليه في سهوم ؛ وهي
ما برحت في شبه غيبوبة تختلط حياها الحقائق بالأحلام .. وأطال
الفتى نظره إلى عيناها ، وأحس بأن هذا النبع قد أخذ يفيض
بالخيرات ، وإذا هو يرى فيه عوالم جديدة ، ذات سماوات
وأرضين ، لا عهد له بها من قبل ، وإنه ليسمع من ذلك النبع الفياض
خريراً لم يمر بسمعه أبهج منه قط ...

ومرت على الفتى فترة ؛ وعيناها موصولتان بعينها ... إنها لحياة
جياشة تفتح له ؛ حياة بعيدة عن واديه القديم بقفروه وجذبه ...
واعتلجت في رأسه شتى الخواطر والأفكار ... يا للعجب ! ...
إن الله قد بعث به إلى النهر لينقذ حياة هذه الفتاة الناعسة ...
هناك قوانين قاهرة ، لا يستطيع المرء أن يقع لها على تفسير ...
السنا مسيرين حقاً لا مخيرين ؟ لقد أنقذ روحاً بشرية من صنع
الله ... أنقذ مخلوقاً من بنى جنسه ، رد إليه الحياة ثانية ، بعد أن
أوشكت أن تفرغه ... إنه غالب الموت فغلبه في هذه المعركة ...
إن الله أراد لهذه الفتاة الحياة ، فكان هو في ساعته يد الله ...
إنه يحس قوة الله في جسمه ، وعظمته تسرى في أوصاله ...

واهتز الفتى اهتزازة اعتداد بنفسه واعتزاز ...
وسمع الفتاة تهمهم :
لم أنقذتى يا سيدى ؟ ...
فقال، وعينه ما زالتا موصولتين بعينها :
لم يكن لك أن تجرمى فى حق نفسك هذا الجرم ...
واستمع لصدى صوته فى نفسه : فكأنه يستمع إلى إنسان
آخر يتكلم ، كأن جديد ينطق فى لهجة جديدة ...
أجابت الفتاة :
وهل من العدل أن يحيا المرء فى هذه الدنيا ، يعانى الظلم
ويشقى ؟ ...
— ليس لنا أن نتخير ، بل أن نصبر على ما نحن فيه ...
ثم نجاهد ، ونكافح ، ونأمل ...
— لقد جاهدت ، فبؤت بالخيبة ، وفقدت كل أمل ...
حاولى أن تخلقى الأمل خلقا ، وأن تصيدى السعادة
تصيدا ...
— حاولت فأخفقت ...
— حاولى أيضا ولا تيئسى ... يجب أن يكون فى قلبك
إيمان بأن الحياة ليست عبثا ...

— كيف ؟

— فكرى لحظة ... إن الله لم يخلقنا فى هذه الدنيا سدى ،
والإلهامى حكمته فى أن يقذف بنا فى هذا التيار ، نصارعه ونصاوله ،
دون جدوى ؟ ... إن لكل منا رسالة يؤديها . . .

— وهل لمخلوقة حقيرة مثلى رسالة ؟ ...

— أحقر كائن فى الأرض له رسالة يجب أن يؤديها ، وإن
خفى علينا وعليه أمرها ...

وغمغمت الفتاة :

رسالة ؟ ... أنا أودى رسالة ؟ ...

وبغته تلقت حولها متفرعة ، وصاحت :

طفلى !

وهرع الفتى والفتاة إلى مكان اللبيفة ، فألفيا الطفلة مدرجة
فى لفائفها ، ناعمة العين بالنظر إلى القمر ، مبهورة بضوئه اللألاء ،
تتحرك يدها فى فرحة ، وهى مستغرقة فى مناغاة ومناجاة ...
فالتقطت الأم طفلتها ، واحتوتها فى صدرها ، وجعلت
تغمزها بقبابها الخنون ...

ثم شرعت تقص على الفتى قصه ذلك البؤس الذى دفع بها إلى
القضاء على نفسها ... إنها قصة شائعة تتلخص فى كلمات قلائل :

حب ، فعبث بالفضيلة ، فافتضح ، فطرد من بيت الأسرة ، فتدخل
من الحبيب ...

فأمسك يدها يلاطفها وهو يقول ، وقد أشار إلى الطفلة ،
يداعب وجنتها :

ألا تعترفين معي بأن في الحياة نواحي جميلة طيبة ، وأن الله
لم يخلقنا فيها سدى ؟ ...

كان الفتى قد ترك في بيته كتابا ، يخبر أهله فيه بأنه معترف
التخلص من الحياة ، وكانت الفتاة قد تركت أيضا في بيتها مثل هذا الكتاب .
إذن لقد اتفهما ... تخلصا من دنياهما القديمة التي شقيا بها ،
وشقيت بهما حينما من الدهر ...

لقد أنقذ الفتى روحين ، وإنه لمسئول عن مصيرهما ...
ونهضا ... وطفقا يسيران ، هو يخطو مرفوع الهامة . تتقد عيناه
عزما وحيوية ، وهي بجانبه معتمدة على ذراعه ، يشرق على محياها
سما الطمأنينة ...

إنهما يسيران ...

يسيران ، وقلباهما يخفقان بشعور واحد ، شعور نقي ناصع ؛
كضياء هذا الكوكب المتألق الذي يغمرهما بفيضه اللؤلؤي ...
يسيران نحو دنيا جديدة ...

شيخ الجفر

إنها قصة تراخى بها العهد ، وقعت أحداثها في ضيعة ضئيلة
الشان . تكاد تنتهى بها تخوم العمران ...
كان الحياة في هذه الضيعة تجري على الأساليب العتيقة في
الفلاحة والإدارة ، بيد أنها مع ذلك كلها كانت فتوتا بما تيسر لها من
وسائل العيش ، فتوافر بذلك حظها من هناءة وأمان ...
عاشت الضيعة ترفرف عليها السكينة والطمأنينة ، يتآزر أهلها
على المداش ، وتصل بينهم وشائج ، ومودة وإيلاف ، فلا ضغائن
مطوية ، ولا شقاق يفضى إلى فرقة وانقسام ...
قام على رأس هذه الضيعة السعيدة ناظر أربى على السبعين من
عمره ، فخل من قومه محل الأدب من بنيه ، يضم لهم الخنان والمرحمة ،
ولكنه يسوسهم بما تقتضيه الحكمة والحزم في عدل وإنصاف ...
وهو على الرغم من علو سنه ، جم النشاط ، متوقد الذهن ، يعيش
حياة الفلاح ، ويقوم بعمله ، ولا يتميز في مطعمه وملبسه ومسكنه
عن سائر سكان الضيعة ... فأحبه قومه ، وأذعنوا له بالطوع ،
وهابوا كلته في أمره ونبيه ...

نهض الناظر بواجب منصبه ، معولا على نفسه ، غير مفتقر
إلى جمع من الكتبة والأعوان يحفون من حوله ... فإذا رغب في
عون دعا إليه ارتجالا بعض الزفاق ؛ فيبتدرونه ويعينونه ، في غير
كلفة ولا تعقيد ... ومن ثم كان في غنية عن موظفين ، تناط
بهم أعمال ...

وما كان الناظر بغافل عما تستمتع به الضيعة من هناة ، فكان
يزهى بذلك بين الحين والحين ، ويردد كلمته الخالدة :
كل شيء يجري بالبركة ...

آنت هذه البركة ثمراتها الطيبة في شيوع الأمن واستتباب
السكينة ، فلم يعكر صفو الضيعة أى حدث من الأحداث المروعة
في عهد ذلك الناظر المبارك ...

وحان يوم قضى فيه الرجل نحبه ، فتلقت الضيعة نعيه في ذهلة
ووجوم ؛ ولكنها استلهمت في رزئها الكبير إيمانها العميق ،
وودعت بموت هذا الناظر عهدا مذكورا بالخير ، وتطلعت إلى عهد
جديد ، لا تدري مصيرها فيه ، مستسلية إلى أنه ليس الحال
دوام ...

وصبحاً هبط الضيعة شاب ، في معة "صبا" يرتدى الحلة الإفرنجية
ويحمل على رأسه القبة المجنحة .. فأقبل مفتول الساعد ، مرفوع

الهامة ، من هو الخطأ ، مدلاً بما يتميز به عن هؤلاء الناس ، من كسب العلم والتحضر ، وفي يده سوط صغير ، يتلاعب به ذات اليمين وذات الشمال . . .

وسرعان ما أعلن أنه الناظر الجديد . . .

فاحتشد إليه القوم ، رانية أبصارهم يتفحصونه في دهشة وعجب . . . ليس عهدهم بعيداً بناظر ضيعتهم الراحل . . . ولقد استقر في أذهانهم أن « الناظر » لابد أن يكون على غرار « شيخنا أشيب » ، يعتم على لبدة ، ويضع على منكبيه العباءة ، ويتخذ عصاه من أغصان الشجر . . . فبال هذا الفتى الأمر ، يدعى ما ليس له بأهل ؟ . . .

وفرّق الناظر الجديد بسوطه ، فأيقظ القوم ، وباغتهم بقوله :
أين حضرة المعاون ؟ . . .

فاختلط الجمع ، وأقبل بعضهم على بعض يتسألون . . .
فاستأنف الناظر صيحتة السكراء . قاتلاً .
أقول لكم أين حضرة للمعاون ؟ . . .

فتعالى همس القوم في حيرة وتعجب . . . وبدلاً من برز من بين الصفوف شيخ يخب في « زعبوطة » ، ورأسه يتط من تحت عمامة ضخمة ، وتقدم بلحيته المبعثرة ، ووجهه المنخفض ، يقول :

ليس لدينا معاون
فاستنكر الشاب ما بلغ سمعه ، وما جل الشيخ بقوله :
ماذا تقول ؟ ... أضيعة بلا معاون ؟ ...
فأجابه الشيخ ركين اللهجة :
عشنا لا نعرف رجلا له هذا اللقب ...
فارتفعت جمجمة الشاب وهو يقهقه ، وفرق ثانية بسوطه
قائلا : عليّ بأمين الخازن
فقض الشيخ من بصره ، وجعل يفرك يديه قائلا : وهذا
أيضا لا وجود له
— أنزعمون أنكم لا تعرفون رجلا ، له هذا اللقب أيضا ؟ ...
— صدق أننا لا نعرف له من وجود ...
فاحتقن وجه الشاب ، وصاح في صوت الثائر المحقق :
ومن عنده مفاتيح الخازن ؟ ... أتدعون أنكم لا تعرفون
للضيعة مخازن ولا مفاتيح ؟ ...
فشخص الشيخ بصره ، قائلا :
هوّن عليك يا بني ... في الضيعة مخازن لها مفاتيح ، ولقد كانت
في حوزة الناظر المرحوم ، أتريد أن تتسلها ؟ ... إنها أمانة
عندي . . .

وأنت ... من تكون ؟ ...

— أنا شيخ الجامع ...

فبعث الشاب من حلقه صيحة ساخرة ، وقال :

ما شاء الله كان ... مفاتيح المخازن بيد شيخ الجامع ؟ ...

هاتها يا رجل ...

فانصرف الشيخ ، ليأتى بالمفاتيح ، وطفق الناظر يندع الأرض
جثة وذهوياً ، وهو يتلفت حوله تلفت المتعصم المشتم ، وجعل
يغمغم :

فوضى ... فوضى ... يبدو لي أنه لابد أن أنشئ الضيعة

إنشاء جديدا ...

ثم صاح بالجمع ، قائلاً :

أليس في الضيعة موظف مسئول ، أستطيع أن أفهم منه

ما أريد ؟ ... ألم يكن للضيعة كاتب ؟ ...

فخرج من الصفوف شيخ نحيل يتحامل على نفسه ، وقال :

كان المحرم يدعو أحيانا لأقيد له بعض حساب الضيعة ...

فأر الناظر يقول في تهكم :

الحمد لله ... وجدنا أخيراً من نسأله ...

وداح يلاحظ الرجل بالنظر الشرر ، ثم أشار إليه قائلاً :

تقدمنى إلى الإدارة تتصفح الدفاتر ...
وهنا لك فى حجرة بالغه السذاجة ، دخل الرجلان ، فتلفت
الناظر يبحث عن مجلس له ، فلم يجد إلا دكة متخلعة ، ورقا عليه
بعض الأوراق والدفاتر . تعلوها غبرة ، فاستنكف أن يجلس ،
ولبث واقفاً يقلب تلك الدفاتر والأوراق ، ويلقى عليها خواطفه
النظرات ، ثم يقذف بها يمينه ويسرة فى تأفف وازدراء ...
وبينا هو كذلك ، إذ هرول إليه شيخ الجامع يحمل حزمة من
مفاتيح ضخمة ، فقدمها إليه ، وما إن أبصرها الناظر الشاب حتى
صاح مقهقها :

مفاتيح من خشب ؟ ... فى أى زمن تعيشون ؟ ...
وازور بيصره عنها يذرع الحجره ، مهتاج الخطوات ، ثم وقف
أمام الرجلين يحدق فيهما برهة ، وقال :
سترى الضيعة عجبا ... لا تقلتها من عهد جهالة وظلام ، إلى
عهد حضارة ونور ...

وعلا يده على جبينه يعتصره ، ثم صاح قائلاً :
على بشيخ الخفر ...
فطأ طأ الشيخان رأسيهما ، وأمعنا فى فرك أيديهما ...
ولما طال بهما الصمت ، صاح الناظر وقد بلغت به

الحيرة والعجب كل مبلغ :

أنجسر ان على أن تدعي أن ليس في الضيعة خفراء ؟ ... حراس ؟
فارتفعت عمامة شيخ الجامع ، وتجلي عجايب المفضن ، تكسوه
طمانينة الإيمان ، ثم همس بقوله :
الحارس هو الله !

فتمرقع الناظر بسوطه فرقة ريع لها الشيخان ، وبصق بصفحة
هو جاء ، وانقتل من الحجرة كالسهم المارق ...
اعتكف الناظر الجديد أيا ما في مثواه لا يريه ، وهو منكب
يدبح تقرير امسبها في شأن الضيعة ، وما تفتقر إليه من خطة إصلاح
انتشالا لها بما هي متردية فيه من فوضى وخراب ...

وقد ترادفت في تقريره كلمات ، لم يربدا من الإلحاح في بيانها
والإشادة بأثرها ، من مثل : « تحديد المسئولية » ، و « تعيين جهات
الاختصاص » ، و « توزيع السلطات » ، و « تعزيز السلطة التنفيذية » .
وخلص من ذلك إلى أن أول ما يجب القيام به هو إنشاء قوة
خفر نظامية ، تكون عوناً للسلطة التنفيذية على الاضطلاع بمهامها
الجسام ، والضرب على أيدي من تحدتهم أنفسهم بالوقوف في طريق
الإصلاح والتعمير ...

وبعث الناظر الشاب بتقريره إلى رب الضيعة في العاصمة ، ونهض

يستثنى نسيم الراحة والاستجمام ؛ كأنما يعد نفسه لذلك العمل الجبار ، الذى رسم خطته فى تقريره العظيم . . .

قضى الناظر أسبوعه الأول منهمكا يفكر ويدبر ؛ لتحقيق أول خطوة فى خطة الإصلاح ، تلك هى إنشاء قوة الخفر . . .

وكان أول ما عنى به اختبار زى للخفراء الجدد ، يوفر لهم المهابة المنشودة ، ويميزهم عن سائر خلق الله . . .

وما إن اطمأن إلى الزى ، حتى شرع يعرض فتيان الضيعة الأشداء ، ويصطفي من ينجحون فى اختياراته والسيكولوجية ، لمعرفة حدة الذكاء ، وقوة الشخصية ، وما أوتوا من مواهب فى الضبط والربط وسعة الحيلة . . .

وبعد أن بلغ من ذلك مأربه ، وتخبر جمعا من الفتيان ، توافرت لهم كل تلك الشرائط ، راح يفكر أيهم يؤمره عليهم شيخا ؟ . . . وجعل معوله فى الاختيار على قوة بصيرته ، التى يعتز بها وينزهها عن الزال . فوق اختياره على قى لم يسكن أقدر الجمع ولا أسنهم . وإنما هى قوة بصيرة الناظر الشاب ، رأت فيه مالم ير سائر الناس . . . ووقف الناظر الشاب ، أمام صف الخفراء ، فجذب إليه ذلك الفتى المحظوظ ، وصاح به :

لقد احترتك شيخا للخفر ، فأدر ك مهمتك حق إدراكها . . .

إن الجندية أساسها الطاعة والنظام ، دون جدل أو نقاش
وعلى كل أن يلزم حده . وأن يعرف واجبه

وفي اليوم التالي ، تجلى شيخ الخفر في الدوار ، يزهو بلبدته
التي حملت شارة الرياسة ، وفي يده مراوطة صلبة فارعة ؛
كأنها ربح القائد المخفر ، وهو يتخاطر في معطفه السايف الأدكن ،
ويبد الخطأ ، وخلفه شرذمة الخفر ، يعلو وجوههم البشر ، وهم
معجبون بما يكتسبون من رضى جديد

وما إن توسط الخفر مساحة الدوار ، حتى أهل عليهم الناظر
الشاب وفي يده سوطه يتلاعب به ، وبدأ يعرض صفهم ، ثم
وقف متهلل الوجه تتألق عيناه ، وصاح :

انتباه

وابتدا معهم حصاة التدريب ، فتعالت دبدبة الأقدام ،
وترامت السواعد تقش وتنبسط ، ونحركات الأجسام تعلو وتهبط ،
وتعقد الغبار في الجو كأنما أثارته حرب ضروس .
وفي أثناء تلك الممعة كان الناظر الشاب يجأر بصوته في
الفضاء ، فتتردد أصداؤه في الأرجاء ، إذ يقول :

إلى اليمين در

إلى الأمام سر

خطوة إلى الخلف . . .

أربعاء تشكيل . . .

سريعاً قف . . .

تعظيم سلام . . .

وكانت سطوح الدوار، وأسوارها، قد عشتت على حافاتها
زمر من الصبية تطلع، وقد بهرها مآرى من منظر عجيب . . .
لبث الناظر الشاب يمارس التدريب ساعة من نهار، ثم
استخلف مكانه شيخ الخفراء، يواصل العمل على النحو
المرسوم . . . وانصرم النهار، وشيخ الخفر مجدّ في تدريب فرقته،
لا تبدأ له حركة، ولا تخفت له صوت . . .

وراح إلى داره في غيوب الشمس، منشقق الحلق من متابعة
الضجيج والصباح، منهوك القوى، تكاد تنفصم ركبته من طول
الانشاء والدوران . . . ولكنه على الرغم من ذلك، أقبل على الدار
مشرئباً ملتحم العين، فاستقبلته زوجته، التف حوله بنوه، يتحسسون
معطفه، ويتواثبون عليه، تطلع إلى لبدته، ذات الشارة الحمراء . . .
فطفق الرجل يتحدث إلى زوجته في مهام منصبه، وكيف أن
الجدية أساسها الطاعة والنظام . . . ومالبث أن بدا في إشارات
وحركاته ونبرات صوته محاكياً ناظر الضيعة الجديد. وجعل

يُدرس في أحاديثه تلك الجمل الرنانة والألفاظ البراقة التي صاغت
سموه أول مرة في هذا اليوم ؛ من مثل وأربعاء تشكّل خطوة
إلى الخلف ، تعظيم سلام ،... فكانت أسرته تصغي إليه في نشوة
والعيون إليه رانية ١... .

ولما حضرت صينية العشاء ، وتحلق حولها الجمع مفترشين الحصى ، أبي
رب الدار إلا أن يحضر والله ، مقعدا يرتفع به عن أديم الأرض ١... .
استنفذ تدريب الخفر جهد الناظر كله ، فكلمنا فرغ من جانب
عرض له جانب جديد ...

وكان لا يسير في الضيقة ، أو يحوس خلال الممرات ، إلا
مصطحبا شرذمة من أولئك الخفراء المدربين ، تتقدمه أو تقفوا خطاه .
فأما شيخ الخفر ، فظل يتلقى تعاليم الناظر في شأن مهمته ،
وينهمك في تنفيذها بين مروسية في همة ومضاء ، نذا آتم عمله ،
وانتخذ سبيله إلى داره . أحس الأعين رمة بنظرات خشية وتهيب ،
ويرى الصبية لا يكادون يلمحون شبهة حتى يلوذوا بالفرار
مخلين له وجه الطريق ١... .

ويوما ، وهو يدرب فرقة ، لم يرض عن أحد الخفراء ،
ورماه بالنقصير ، وجاوز في تعنيفه الحد ، وكان الخفير أسن منه
وأصلب عودا ، فلم يعتم ذلك الخفير أن أغلظ له في القول ، وما

هى إلا أن هجم عليه شيخ الخفر، وهوى على صدغه بلطمة شديدة، وسرعان ما التحم الحصان، واستبد بهما العراك
وا انتهى إلى الناظر الخبر، فقدم على عجل، وفرق بين المتضاربين، ثم لم يلبث أن أصدر أمره بفصل الخفير، فصلا مشمولاً بالنفاذ، لأنه خالف أول مادة في قانون الجندية، وهى الطاعة والنظام، دون جدل أو نقاش . . .

وتقدم إلى الصف فانتزع الخفير منه، وجرده من شارة الخفارة، ومن زياها الرسمى، كما يجرد القائد جنديه المتمرد من شاراته، وينزع منه ما معه من السلاح . . .

ومضى الخفير الطريق مبهض الجناح، يتضرم قلبه حقدا وضغينة . . . وفى جوف الليل أمام النار المتقدة التف بعض الحفراء يصطالون ويخوضون فى حادثة النهار، فقال أحدهم:

ليس من حق شيخ الخفر أن يصفع واحدا منا . . .
فأجابه رفيق له:

ولكنهم يزعمون أن الطاعة أساس الجندية الصحيحة . . .
فصاح ثالث:

مهما يكن أمره، فما يجوز لأحد أن يهين خلقه الله . .
فقال الأول:

الحق أن شيخ الخفر جاوز الحد ، وأنه صال واستطال ، مع أنه ليس أدلا لمنصبه ، وأنه ليس فينا من يقل عنه اقتدارا وقوة .
فقال الثالث :

حقا خدع الناظر في شأنه ، وسينتبه إلى خطائه في اختياره .
فقال رابع آخر ، وكان برأيه ضئيلنا :
لا تنسوا أن مرتب شيخ الخفر ضعف مرتب الخفير ، على حين أنه ليس له من عمل إلا الجمعية والتأمر .
ولمح الجمع شجدا في الطريق ، فسكتوا يتبينون شخصيته ،
فإذا هو الخفير الطريد ، فدعوه إلى الجالوس ، فاستجاب . . .
كثر بينهم همس ، تخلفه فخرج الكيد والدس . . .
تقضت أيام ، لم يجرؤ فيها أحد على أن يطالع الناظر بشكاة .
أو يرفع إليه ظلامه ، ولكن الضيعة عاشت هذه الأيام ، تحت ستار من الأسرار . . .
وتواصل العمل في تدريب الخفراء ، بهمة ونشاط ، وأحس شيخ الخفر سطوة سلطانه ، فازداد من صلف وعتو ، وتنابت منه صنوف الإهانات من ركلٍ وصفع وطرْد ، يسخوها على مرءوسيه في تبحر وتقوّل وادعاء ، واجدا من ناظر الضيعة ظهيرا ، يواليه بالرضا والتأييد . . .

وسرّت بين سكان الضيعة هبة شيخ الحقر وجاهه ، فتفرب إليه الناس جماعات ، وخصوه بأنواع الزاني ، وأصبح بيته مقصدا لطلاب الشفاعات في شئون الضيعة ، ما يتصل بإدارتها ، ومرفأ لكثير من الهدايا والإتحافات من خيرات الريف

ومرة عنف النظر بشيخ الحقر ، في بعض الأمور ، فلم يرقه ذلك ، وبدأت عليه بوادر التمر ، ونسى - في غشية الزهو والسلطة - أنه بين يدي رئيسه ، وتضاءلت في مخيلته تلك الحكمة القائلة بأن الطاعة أساس الجندية

وانتهى الأمر بالناظر وشيخ الحقر ، إلى جفوة تطاير غبارها ، وتسامع بها الناس .

وما أسرع أن تهاوت الظلامات تصاحب الناظر وتماسيه ، مهية به أن يضع حداً لذلك الجبار العنيد الذي عاث في الضيعة فسادا . . . وفكر الناظر في أمر شيخ الحقر طويلا ، وأسلمه التفكير إلى رأى حاسم ، هو إحالة ذلك الرجل إلى مجلس تأديب وانعقد المجلس ، فتولى الناظر رياسته . متنفخا في جلسته ، وعن يمينه شيخ الجامع ، يرزح تحت ثقل عمامته ، وعن يساره ذلك الشيخ الذي يقوم بأعمال الكتابة في الضيعة ، تكاد تخطئه العيون لضموره وانكماشه

وبدب ... ين ، وده الجيم ، تتقاذف بهما الألسن في تلك
الحجرة المعلقة المترددة ، التي يكاد سقفها ينخر ، وقد وقف المهتم
يحاصره جمع من الشهود ...

ونصل ضوء النهار ، وما برحت المحكمة جادة تحقق وتناقش ،
وقد اختنق الجو بالآتقاس ، وتحلب العرق من الجباه ، وبدأ
الناظر محتقن الوجه ، مضطرم العينين ، ففك أزرار قميصه ، وشر
كفيه ، وهو منخرط في عمله ، يمين على نظام الجلسة ، ويلقى أشتاتا
من الأوامر والنواهي ، في حية وحماس ...

وأخيرا رأى رئيس الجلسة أن يختلي نفسه ، لبصدر حكمه في
قضية اليوم ، فأمر بإخلاء المكان .

وبعد هنيهة أذن للجمع في الحضور ، لإعلان الحكم ، فاعتصب
الحجرة بوافديها ، وتجمع الناس حولها ، يسدون منافذها ، ويرهفون
الاسماع ...

وما هي إلا أن اعتلى الناظر مقعده ، ووقف يقرأ ورقة في
يده ، وبعد أن أشع نهمه من تكرار : من حيث إن ... ، أعلن
حكمه القاضي بفصل شيخ الحفر ، وإلزامه دفع غرامة جسيمة ...
فدوت في الحجرة ضجة عارمة ، وتعالى أصوات تهتف
بحياة العدالة ، وأخرى تهتف بسقوط الطاغية البغيض ...

واخترق الناظر زحمة الناس ، وهو يضرب الأرض بخطا ثقالة ،
ويتلاعب بسوطه في احتياج ، وقصد إلى منزله من هو النفس ،
ولكنه ما كاد يبلغ المقعد حتى ارتدى عليه منسرق القوى . . .
وسهرت الضيعة ليلتها تتحدث في شأن من يخلف شيخ الخنفر
المعزول ، فتحلقت الجماعات على المصاطب ، واختلطت الأصوات
في مجادلة وحوار ، تحاول كل فئة أن ترشح من تهوى وتعمل على
إحباط غيره من المرشحين لهذا المنصب الخطير الذي تعرفت
الضيعة مكانته وأثره في التسلط والاعتنام . . .

وتسللت الأشباح زرافات وفرادى إلى بيت الناظر ، يطويهم
الباب في مسطرة وحذر . . .

وظلت حجرة الناظر تبعث شعاع مصباحها حتى جوف الليل ،
وطيف الناظر يترامى وراء النافذة في جيئة وذهوب . . .

وبكر الناس في رونق الصبح يتجمعون تجاه البيت ، مرتقبين
مهيطة الناظر ، ليروا ماذا يبت من رأى في اختيار شيخ الخنفر الجديد .
فما إن لمحوه مقبلا حتى تكاثرت عليه الجموع ، تستخبره في تعريض
وتلج . فمضى عنهم مشمخر الأنف ، محفظا بالسر العظيم . . .
وقصد الحجرة التي كانت أمس محكمة الفصل في قضية شيخ
الخنفر ، وهناك أعلن على الملأ أنه قد تخير الخفير الطريدي شيخا للخنفر ؛

فكأنما رمى بذلك إلى أن ينصف مظلوما ، هضم حقه الشيخ
المفصول ، حتى يطمئن الناس إلى أن العدل أساس الإدارة ، في
عهد ناظر الضيعة الجديد ، ومخرجها من حال إلى حال .

وما كاد الناظر يعلن ذلك حتى تبدت علامم الدهشة على الوجوه .
فما كان في حسابان أحد أن يقع الاختيار على ذلك الخفير الذي
طرده من قبل . ولقد رشحت كل جماعة واحدا ، فلم يكن ذلك الرجل
أحد المرشحين جميعاً . . .

وظل المهرج والمرج يقتهب الجموع ، حتى فرقع الناظر بسوطه ،
هزاجع الناس ، وثاب إليهم الهدوء . .

واكتسى الشيخ الجديد معطفه الساخ ، وسوى على رأسه
لبدته ذات الشارة الحمراء ، وأخذ بيده المراوة الفارغة . . . وسرعان
ما شهدت ساحة الدوائر ، ثانية جمع الخفراء ، يزاولون التدريب ،
وتجاوبت الأرجاء بالكلمات الخالدة :

إلى الدين در ا . . .

إلى الإمام سرا . . .

سريعاً قف ا . . .

تعظيم سلام ا . . .

وآب شيخ الخفر الجديد إلى بيته ، يومئذ بالتحية يمنة ويسرة

لمن وقفوا له . وما كاد يابح باب الدار ، حتى استقبلته حشود من
القصّاد ، يحملون له الهدايا والطرف ، ويعاجلونه بعبارات التهتة
والدعاء

توالت الأيام تزوع شيخ الخفر المفضل بألوان الاضطهادات
والإهانات يتقصده بها شيخ الخفر الجديد ، يوازره أصحاب الثارات
والاحقاد ، بمن كان يظفي عليهم الشيخ الاول ، إبان حوله
وطوله . . .

وتبدلت حال شيخ الخفر الجديد . فترات في بيته أنعم طارئة ،
وعرف طريقه طلاب الحاجات والشفاعات ، والتف حوله
الشعبة والانصار . . .

وأصبح منصب شياخة الخفر ذائع الصيت ، قوى النفوذ ،
يجتذب بلآلئه التواظر ، ففتت إليه القلوب ، وتعلقت به الحمم ،
وتكاثرت حوله الأطلماع . . .

وربعت الضيعة مرات بأحداث السرقات ، وتقلع الزروع ،
وتغريق الحقول . . . وما إلى ذلك من ضروب الكيد
والإيذاء

وتوالت على بيت الناظر عرائض الشكاة والالتهام ، تمس شيخ
الخفر ، وترميه بكل تقيصة شنعاء . فكان الناظر يقضى ساعاته الطوال

يتصفح تلك العرائض ؛ يذيلها بملاحظات وقريراته ؛ يجتهد في الموازنة والتأويل والاستخراج ...

واستيقظت الفتنة في قلب الضيعة ، وتبادل الناس الخوف والحذر ، وتسلل التباغض إلى جماعة الخفراء ، فانقسموا على أنفسهم شر انقسام ، وراح يتكيد بعضهم لبعض ، فتفطن شيخ الخفر إلى ذلك كله ، وخشى سوء المغيبة ، وتمثل مصير سلفه ، فانتخذ للأمر أهبة ، وجعل يتحوط ويتحفظ ، وتذرع بشئ الوسايل ، من بعث للعيون ، وإغراء بالغنائم ، وجبك للسكايد ، ونأليب لنفر على نفر ؛ حتى يحتفظ بمنصبه ، ويقبض على بواصي الأمور ...
وأنس الناظر وميض النار خلال الرماد ، فضاغف عدد الخفراء ، وظهر في المساء يحمل إلى جنبه غداة ضخمة ، يكف بها غائنة العيون ...

وكان — في كل فرصة تلوح له — يؤكد أنه لن يالو جهداً في إقرار الهدوء والنظام. فلا نجاح لعمل إلا في ظلال الأمن والسلام ...
وليلة هب الناظر من رقاده قبيل السحر مذعوراً ، إذ أنهى إليه بعض الخفراء أن سطواً وقع على بيت شيخ الخفر ، وأن البحث جار عن المعتدين ، حول منازل شيخ الخفر المفصول ونصراته ...

وما إن أنتم الخفراء قوله، حتى سمعت ضجة عنيفة وتضارب بالعصى
الغلاظ، وقد انطلقت أصوات النساء في ولولة وتصاريح انتحاب...
فأسرع الناظر يرتدى ملابسه وهروا إلى مساكن الضيعة،
فالقي الثورة في عنقوانها، والمركة تدور رحاها حامية الوطيس،
فاقتحم الزحام في جراءة وإقدام، وراح يزار بصوته ينهى ويأمر،
فلم يعبأ به أحد وذاب صوته في حرارة العراك والمطاحنة،
وأراد أن يستنجد بعذارته، فما كاد يمسكها في يده، حتى وجدها
قد أغلقت منه، وذهبت أدراج الزحمة والاختلاط...!

وأحسن الجماهير تعصره وتضغطه، فحاول ثانية أن يصرخ،
فتعثر صوته في حلقه، فأراد أن يفزع إلى أعوانه من الخفراء
والحراس، فلم يجد أحداً فارغاً له، كل منهم بنصيبه في المشاجرة
ممشغول. وضائق به وجوه الحيلة، فراجع نجا بنفسه بما لا تحمد
عقباه، فإذا به عن كذب من فئة تتضارب بالهراوات في عنف
وهوج... وما هي إلا أذان دمج في هذه الفئة، وقد تعاورت الضربات
نقر متخنا بالجراح...!

وفي مرتفع النهار، شمل الضيعة خمسود وتخاذل وانهار. ثمة
أناس داخل الآكواخ وخارجها، طختهم المركة وأدمت أوصالهم،
فهم يلبون شعهم، ويعالجون جراحاتهم... وثمة أمتعة مبعثرة

أمام الدور ، وأنقاض ما تهدم من جدران تجوس خلالها الكلاب ،
متشمة في خوف وحذر . . .

وفي صبيحة غد شوهد شيخ الجامع يحوب الضيعة ، مستعينا
بالله ، ملتعسا منه اللطف في قضائه . . . وكان يمر بالدور لماما ، يعود
طريحا أو يؤاسي جريحا ، ويهدي نائرا أو يشاور ذا رأى من
الاشياخ . . .

وأدى به المطاف إلى إدارة الضيعة ، فما إن رآه الشيخ الذي يتولى
كتابة الحساب ، حتى ألقى إليه مفاتيح المخازن ، فإذا هي تلك الحزمة
الضخمة من المفاتيح الخشبية ، وقال وهو يسلمها له :
أبقها معك يا مولانا الشيخ ، ريثما يتم تعيين الناظر الجديد . .

المستعين بالله... (الكابتن هاردي).

حين اشتدت وطأة الغارات على العاصمة ، إبان الحرب .
وأحسنا محائب الهم والفرع تتعقد في سماء حياتنا ، وتوثر
الأعصاب أيماتور ، فكر فريق منا أن يهجر « القاهرة » إلى بعض
الاماكن النائية يطلب فيها الطمأنينة والأمن ، فكنت أحد السباقيين
إلى الهجرة .

وقضيت في الضيعة بضعة أشهر ، أتبع أخبار الغارات في
الصحف ، وأتلقط أحاديثها من الأفواه . وكلما علت أن غارة
روعت سكان القاهرة أو الإسكندرية ، وكان لها آثار وخيمة ؛ ...
حمدت الله الذي وفقني إلى المبادرة بسكنى الضيعة ، لأبعد بيني وبين
منطقة الخطر ، فأكون منه بمنجاة ! ...

ولكنني على الرغم من هذه الطمأنينة السابغة وجدت في قلبي
ديب السأم يتزايد ، وجعلت أشعر بضيق من تلك الوحدة القاسية ،
وبما يحيط بي من بيئة جديدة عليّ ، فقدت فيها كثيرا من ألوان
الرفاهية ، ونأيت فيها عن كثير من مظاهر حياتي الاجتماعية
التي ألفتها .

و بينما كنت في روتق الضحى أجلس في شرفة الدار الريفية
التي نزلت بها ، أغالب الوحدة وأننى عن نفسى الملل بتصفح مجموعة
من الأقاويص ، إذ أقبل على الخادم برزمة البريد ، فتلقفتها منه في
شفق ، وانسكبت على الصحف ألهم أنباء الغارات ، فإذا الحالة
تزداد سوءاً على سوء ، فاقبضت نفسى ، ونحيت الصحف عني ،
وانصرفت إلى الرسائل فجعلت أقلبها بين يدي ، فاسترعى انتباهي منها
اسالة راعني بغرابة خطها ، كأن كاتبها تليذ بجته ، يحاول أن يظهر
براعته في حسن الخط . ولبثت أتأمل العنوان هنيهة ، ثم التمتعت
عنه ، وهممت : أيمكن هذا ؟ ...

وفضضت الغلاف متعجلاً ، ثم بسطت الرسالة ، وما إن وقع
بصري على الإمضاء حتى ابتسمت ، وبان لي أن ظني لم يخب ،
ورحت أقرأ :

أيها الصديق العزيز :

سلامي إليك طيب عطر ، ثم أحمد إليك الله - جلت قدرته -
وأنهى إليك أني نزيل مصر منذ أشهر ، وقد شغقت إلى رؤيتك
نفسى ، فطلبتك في الهاتف مرات : وما حظيت مرة إلا بهذا الجواب
المتكرر : أنت في معزلك ، أو بالحرى في مهربك . وإذ طال تنظري
لك - على غير طائل - استخرت الله في أن يطالعك منى كتاب .

ولاني نخبرك بمقامي في «الحسين» وامتداد إقامتي فترة . فإذا فككت
عن نفسك إيسارها ، ورأيت عودا إلى «قاهرة المعز» ، فزرني
بداري «مخزن الرشيد» تناول أقداحا من الشاي الذكي ، وتذاكر
أحاديث الماضي الحبيب ولتكن على ثقة بأننا مقبلون على أيام
طمأنينة وأمان ، فلا تهولك الاخطار ، وأقبل شجاعا غير هائب ،
والله راعيكم

(أخوك : المستعين بالله هاردي ،

كابتن بالجيش)

وطافت برأسي شتى الذكريات المستعين بالله ،
«المستر هاردي» ، بل «الكابتن هاردي» ، صديق المستشرق
المسلم ، الذي عرفته متحمسا للشرق والإسلام ، وأكثر منا نحن
الشرقيين المسلمين

وتوضحت لي ، على الفور ، صورة ذلك الصديق الكريم :
قامة ، بسوطة ، ووجه مستطيل مشرق ، وبشرة وردية ناضرة ،
وعينان زرقاوان ، تروعان بصفاتها الشفاف . وصوت هادي .
خافت باقي بكلماته في تباطؤ وتنسيق ، يصمت بين الكلمة والكلمة
كأنه يتخيرها من معجم في رأسه ، ولهجة عربية ، تبين فيها فصاحة
اللفظ . ولكنها لا تخلو من عجمة محببه

وتوالت الذكريات والصور ... « حى الحسين » ... جولانا
في أسواقه ، نبتاع الطرف والتحف ، وجلساتنا في نواديه نحسى
الشاي الأخضر ... وكان من عادة صديقي أن يتسمع في هذه
النوادي إلى الجلاس من مختلف الطوائف ، ويتصيد الألفاظ
الغريبة فيقيدها في دفتره ، الذى بليت أوراقه من طول الطي
والفشر ، وتشابكت سطورره من تكرار الزيادة والتعليق ...
وداره ، ذلك المبنى الصغير ، الذى أطلق عليه اسم : « الرشيد » : —
تبرك منه السذاجة والطابع الشرقى الجليل ... وكان الصديق يتخذ
هذه الدار مثابة ، كلما قدم مصر ، فى العام بعد الأعوام . وأقرب عهدى
به كان منذ أربع سنين ، ثم انقطعت عني أخباره ، حتى خلت أنه
ليس إلى عودته من سبيل ...

وقت أذرع الشرفة جيثة وذهوبا . والرسالة في يميني ، قد
هاجت في نفسي عاطفة الذكرى لأيام رفاق ، قضيتها ناعم
البال خلى الفؤاد . ورنوت إلى الرسالة ، فوقعت عيني على قول
الصديق : « إنا مقبلون على أيام طمأنينة وأمان ، . وما كدت
أخطو خطوتين إلى مقعدي ، حتى أخذت عيني عنوانات على جبين
الصحف ، تلفت النظر ، فيها بيان لما أحدثته الغارات من خسارة
في الأموال والأرواح ، فقدت بهذه الصحف مغيظا وهممت :

شد ما يغفلون في رواية الأخبار ...
وصحت مناديا الخادم ، فقلت له على الفور :
احزم حقائبى ... سنرحل مبكرين إلى القاهرة ...
فقال لى مأخوذا :
والغارات يا سيدي ؟ ...
— أنحسب أننا هنا ناجون من الأخطار ؟ ... الأعمار
بيد الله ! ...

وفي أصيل غدى كنت أغادر دارى في القاهرة ، آخذاً طريقى
إلى « حى الحسين » ، ووقفت عن كتب من دار الصديق أتطلع
إليها ، فألقيتها كما عهدت ، الباب ذو المطرقة النحاسية ، وذلك اللوح
المكتوب عليه بالخط الكوفي : « مَعْنَى الرِّشِيد » : فأخذت
بالمطرقة أدق الباب ، كما يفعل الطارق في العصور الوسطى ...
وانتفحت من أعلى الباب طاقة أطل منها رأس « مسرور » ، خادم
« الكابتن » ، الخاص فما لمحنى حتى انفرجت شفتاه عن ابتسامته
الأنيسة ، وحنانى متلطفا ، ثم شد حبل الباب ، فانفتحت مغاليقه ،
فدفعت بخطاى داخلا : فإذا الفناء الصغير كما عهدته رطباً مظلاً ،
يظله عريش كرم عتيق ، وجزت بتلك الفسقية الساذجة ، وماؤها
يقرقر ؛ كأنه يحى القادم تحية الاستقبال .

ودلفنا إلى الدهليز الضيق ، تتدلى منه بعض قناديل ملونة
ترسل أضواء محتشمة هادئة . . . وقبل أن أصل إلى بهو الضيافة ،
ظهر شيخ صديقي المستشرق ، وقد بسط لي ذراعيه ، فتعانقنا عنق
الود والمصافحة . وأخذ صديقي بيدي فسأرتة إلى البهو ، وهو
ينخب في عباة الحريرية المصفقة ، وقبائه الزاهي ، وذلك الخف
الأحمر ، يخفق به على الأرض تحفقات مميته ؛ كأنها همس أطياف . .
واسترعى انتباهي في نظراتي إلى الصديق هزاله وامتناعه ، ومشيه
متوكنا على عصا ، يظلم بعض الظلم . . . ودخلنا البهو ، فجلسنا على
الحشايا متقاربين . وصاح صديقي قائلاً ، وقد ضرب كتفي بيده :
ما قولك في أني عثرت في « مجريط » على مخطوط ديوان « ابن
زريق » ، وقد استنقذتها من بين خرائب الحرب الأهلية ؟ . . .
فقلت دهشاً :

ما أندرها تحفة ! . . . ألا تمتعني بالنظر إليها ؟ . . .
فزوى ما بين عيني ، وسرح بفكره ، ثم همهم :
تركها في داري وراء البحار . . . ولا أدري ما حظها من
كوارث الغارات هنا لك ؟ . . .
فهزئت رأسي أسفاً ، ثم قلت له .
أما تاح لك أن تنقل بعض النقوش الأثرية الباقية في « إسبانيا » .

من عهود الحضارة الإسلامية في « الأندلس » ؟ ...
وكنت أعلم أن لصدقي باعا واسعا ، في الرسم والتصوير ...
فقال لي ، وهو على حاله منسرح الخاطر :
لدى طرائف ولطائف ، استطعت أن أنقلها رسما وتصويرا ،
وهي الآن رهينة أقدار الغارات في خزانة كتي هنا لك ...
ثم صمت لحظة ، وقال :
حينما جندت لخدمة الجيش ، ونقلت إلى القاهرة ، لم أستطع
أن أحمل معي شيئا من كتب أو مذكرات أو صور ... جئت
هذه المرة أحمل الحديد والنار ...
وسمعته يصبح بخادمه « مسرور » :
علينا الشاى ...
فقلت له :
إنى لا عجب لك ، كيف تتكلم عن الحرب والضرب ، وما
أراك إلا كسابق عهدك في « مغنى الرشيد » ، تنقلب في أحلام
الشرق الهاتئة ، وما هو ذا « مسرور » مازال قائما بخدمتك ...
فابتسم ابتسامة سائحة ، وقال :
أنا في إجازة مرضية ، أقضى فترة النقاهة ، بعد علاجى من
جراح أصابتنى .

ثم أشار إلى موضع في سافه ، وواصل حديثه يقول :
لقد أرادوني على أن أزل ، الجزيرة ، أو ، حلوان ، ، فقلت
دلم عوني أستجم في حى والحسين ، أنشق عير الراحة في «مغنى
الرشيد ، ، وأملاً سمعى كل انبلاج فجر بسماع الأذان ، يهر نفسى
هزا ، ويرنح أعطافى طرباً ...

ثم ابتسم ابتسامة وضيئه رحيه وقال :
ما أجل أن يقضى الإنسان عمره في ذلك الجو الساحر ،
جو «ألف ليلة ، ... إني لأشعر بأنى أعيش حقاً !
وعلا بصدري يملأ رثنيه بالهواء ، فتناولت سبحة ، كانت مناعن
كتب ، وطفقت أعبث بحياتها ، وأنا أصدق فيها ، ثم قلت خافت النبرات :
ولكنى أرى أن شيئاً ينقصك ...
— أى شىء ؟ ...

فبأطأت هنية ، ثم قلت وأنا بالسبحة أعبث :
ينقصك «شهر زاد ، ... !
ورفعت عيني إليه ، فألفيته يصعد نظره في عرض الحجر
صامتاً ، وهو يتكلم ابتسامة شاحبة ، ثم هجم :
«شهر زاد ، ؟ ... ويحك من مهادرا ... أنى لي به «شهر زاد ،
هذه ؟ ...

وغشينا الصمت برهة ، ثم استأنف يقول ، وقد تزايلت
القسامته ، في صوت متخافت ، كأنه آت من مكان محيق :
شهر زاد ؟ ... إنها بعيدة .. بعيد كل البعد ...
وأردت أن أتبين ما يعنيه ، وما يحاول أن يخفيه ، فابتدرونا
« مسرور » ، قادما بصيفية الشاي ، يتخطر بجسمه المتكثل الضخم ،
وعمامته الطويلة ، التي تكاد تلامس السقف . فوضع الشاي بين
أيدينا ، وانصرف يزلزل الحجرة بخطواته الثقالة ...
وصب صديقي « المستشرق » الشاي في الأقداح ، وأخذنا نحتسى
على مهل ، ونحن في صمت كأننا في شغل بالشراب ...
وجعلت أنقل بصرى في الحجرة أتفحص ماحوت ، فوفقت
عيني على صورة ، لم أكن قد لاحظت وجودها ، صورة وجه
نسوى ... ليس بالوجه المكتمل ، وإنما هو عيناه دججوان ،
ينبسط تحتها خمار أسود ، رقيق السيج يكاد يشف عن ملامح
وسمات قمضت إلى الرسم أنوسمه مليا ، وقد خلبتني هاتان العينان
بجورهما الساحر ، وأهداهما الوطاف ... ورجعت الى مجلسي
فاحتسيت جرعة من قدح الشاي ، وأما أقول :
صورة رائعة ... لقد تجملت براعتك في التصوير يا صديقي ...
— أنرى ذلك ؟ ...

— أمن وحي الخيال هي ، أم من عالم الواقع ؟ ...
فصمت متشاغلا يصب الشاي ، ثم قال مهمها :
من وحي الخيال ...

— ألم تستلهم السمات من نموذج حي ؟ ...
— قلت لك : من وحي الخيال ...

وشرد بذهنه كأنه يتحرز من متابعة الحديث ، فأقبلت على
قدحي أشرب منه ، وقد خيم علينا الصمت بعض الوقت ، فقلت
أصل ما انقطع من الكلام :
ظننت أن « شهر زاد » تعوزك في « مغنى الرشيد » ، فإذا هي
تحتل منه أعز مكان ...

فأطلق ضحكة غامضة ، وقال وهو يتلاعب بملعقة في يده :
لا وقت عندي لشهر زادك يا صديقي المهدار ...
كيف تنفق يومك ؟ ...

فجمع إليه ما انتشر من قبائه ثم نزع قلنسوته ، وأخذ يسوى
شعره الأملس ، ويقول :

إنى أستجم ، لا أبرح الدار الا النذرة .

— ألا تميل هذا النمط من الحياة ؟ ...

— اذا شعرت بحاجة الى التسلية ، فعندى « مسرور » يفكهنى

بنوادره اللطاف ... وقد أخرج لبلا في ضوء القمر ، أطوف
بالمساجد ، ثم أعود إلى الدار ، مقلدا على المطالعة ..
— وماذا تقرأ ؟

— أراجع نصوص شعر العباس بن الأحف ، ... إنه زاذى
كله في هذه الأيام ...

— مالك ولهذا الشاعر ؟ ... إنه ينفج وجدا وصباية ا ...
فسرح صديقي بصره لحظه أمامه ، وقال :
إني لأقرؤه لسهولته وعذوبته شاعريته ، لا لوجده وصبايته ...
خمالى بالحلب شأن ا ...

— ومعجمك الآخر ، كيف حاله ؟ ...

فسنحت على ثغره ابتسامة ، وهمهم :

تقصد الشيخ « جاد الرب » أستاذى ا ... إنه بخير ...

— عجيب أن أسألك - أنت ضيف مصر عن رجل ، تجمع
بينى وبينه مدينة واحدة ... أصدق أنى لم أراه منذ زرتك معك
آخر مرة ، كنت أنت فيها مصر ؟ ... أعلى حاله هو لم يجد فى شأنه
جديد ؟ ...

فأخذ صديقى يعيد القلنسوة إلى رأسه ، ويحكم وضعها على
فوديه ، متمهلا فى عمله ، مطيلا لوقته ، ثم قال ، منحرف البصر عنى :

إنه كما تعهد ، لم يحدث له شيء ذوبال ، إلا ما كان من أمر تافه ا .
... ماذا ؟ ...

... زواجه ا ...

... عجبا . . أيتزوج وهو شيخ فان ، نصف بصير ، نصف سميع ،
نصف حي ؟ ...

... هذا ما وقع ...

... من تكون تلك التي رماها به القدر ؟ ...

... « نور العين » ... ربيته ...

... الطاملة الخريفة ، الى كذا نصيق ذرعا بمعايتها ؟ ...

... أحسبها تظل طفلة أمد الدهر ؟ ... لقد غدت فتاة يافعة ...

لأنها تستقبل عامها السابع عشر ا ...

... ألم ينرف الشيخ على السبعين ؟ ...

... لا بأس ... لقد كملها طفلة ، وألف أن تتمهده بالخدمة ،

ولم يكن يقيم في البيت سواهما ؛ فلما قاربت طور الشباب لم يجد
الشيخ بدا من أن ينسبها ، فهو كما تعلم حريص على أن يصحح
دينه ، ويبرىء عرضه ...

واسترخى صديقي في مجلسه ، وأشعل غليوته ، وراح ينفث
الدخان ويبدأ مسبل الجفنين ا ...

وعادت الذكريات تطوف برأسي ، ولاحت لي مشاهد من
زيارتي قديماً لبيت الشيخ ، في حبة الصديق المستشرق ؛ إذ كان
يقرأ عليه بعض الكتب ، ويدرس معه بعض النصوص ...
كنا ندلف إلى حجرة الشيخ الغبراء المعتمدة ، فنجدته غريقاً
بين كتبه ، تشرف عليها عمامته الحمراء الضخمة ، ورمزه العتيق ،
الذي لا يترايل عنه ، مهما جد من أحداث ، ومهما تعاقب من
أجواء ... ولا نكاد نطمئن في مجلسنا إليه ، حتى يصفق يسيدين
هزيلتين ، صائحاً بصوته المختق :
القهوة يا د نور ، ...

وما هي إلا أن تحضر « نور العين » حاملة صينية ، عليها إبريق
تحف به أقداح بلدية ، وموقد يتوهج فيه الجمر ، وتعدلي منه سحاب
البخور ، ثم تبرع عن كتب من الشيخ ، وتبدأ في صب القهوة ،
وتقديم الأقداح مرة بعد مرة ... وهي صبية ممراء ، فوارة العيتين
مراحاً وحيوية ، كثيراً ما كانت تختلس إلينا النظر ونحن عاكفون
على الدرس ، بين قارئ ومستمع ، فإذا آتت من أحدنا غرة
رمته بحبات اللب أو الفول ، وهي تخفي بين طيات خمارها الأسود
ما يغلبها من الضحك ، وتتشاغل بإذكاء الجمر أو ملء الأقداح ...
وبينا أنا في فيض من هذه الذكريات ، إذ تقابلت نظراتي

ونظرات صديق المستشرق ، وهو يتابع تدخينه ، فسمعتة يقول
هسأ كمن يحلم :

ما كان أكثر معاكستها لنا . . .

وأمسكت عن الكلام فترة أحرق فيه ، وقد راعنى أننا كنا أثناء
صمتنا فى رحلة على جناح الذكريات نسبح فى آفاق ماض حبيب .
ثم قلت :

والآن كيف هى ؟ . . .

— تكاد تكون فتاة أخرى غير التى نعرف ؟

وشغل صديق بوضع الطباقي فى غليوته وإشعاله . وفى هذه
اللحظة قديم « مسرور » يرفع من بين أيدينا صينية شاي ، وهو
يقول لسيدة :

أذكرك بالموعد . . . لقد أذف . . .

فقلت لصديق على الفور :

أعلى موعد أنت ؟ . . .

— لا عليك ... إن هى إلا زيارة غير محتومة لصديقنا « المعجم

الأحر » ، لبعض مطالعات يمكن إرجاؤها . . .

قمضت قائلته :

بل تذهب لطبّتك ، فإذا أذنت رافقتك على مألوف

العادة ... إنها فرصة أغتنمها لتحية الشيخ ، فإنى لم ألقه منذ زمن
حديد ...

فقال وقد لم شعثه ناهضاً :

يسعدنى أن تكون معى ...

وتهيأنا لمبارحة القاعة ، وفيما نحن منصرفان لا حظت أن
صديقى يسترق النظر إلى الصورة المعلقة ... ومضينا إلى الباب
يخبط صديقى في قبائه ، ويكور على قلنسوته عمامة بيضاء أنيقة ...
وخرجنا نجتاز الدروب الملتوية نخوض فيها الظلام الذى كان طابع
الحياة الليلية فى ذلك العهد — ونحن صامتان نستبين الطريق فى
محاذرة واحتراس ... وبعد لآى بلغنا مأوى الشيخ ، فأخذ
صديقى يقرع الباب هنيئة ، فافترج مصراعه ، كأنما تحركه
يد ساحر ، ودلفنا إلى دهليز ، تطارد ظلامه فلول من الضوء ،
يبعثها قنديل منكش خزيان . وفيما نحن نعانى وحشة المكان ، إذ
فاجأتنا سعة هزيلة متصلة الحلقات ، صاحبت خطانا تؤنسنا حتى
باب الحجر ، وقد انفتح منه جانب يتسلل خلفه ضوء شجيع ،
ونهب منه رائحة التبغ ... وصفق صديقى المستشرق تصفيقة
خاصة ، فسمعنا صوتاً متداعى النبرات يقول :

أهلاً وسهلاً ...

فدخلنا القاعة ، فإذا هي هي ، في غربتها ، وضيقها ، وحلوكتها...
كومات من الكنب ، تراءى وسطها عمامة ضخمة سمراء تبتلع وجها
معروقا ضيلا ، أكثره لحية شعناء... ودنوت من الشيخ أذكره
بنفسى ، فتناول يدي ، وأبقاها بين يديه ، وهو يحملق في بعين
كليلة محمرة تجردت من الأهداب ؛ وقال في صوت لم يصف بعد
من بقايا تلك السعلة الكريمة :

أهلا بصديقنا الهارب... أكذلك تنسانا دهرًا ؟

فقلت وأنا أشد على يده :

حقا غبت عنك طويلا ، ولكن عذرى في ذلك ما أحاط بي
من مشاغل ومهام...

— ألم تستكمل بعد دراستك لشاعر المعرة « أبي العلاء » ؟...

— ماذا يستطيع أن يفعل ذلك الفيلسوف الحكيم ، في وقته

روعت فيه النفوس واضطربت الحياة ؟...

فهمهم صديقى المستشرق ، وقد اقتعد حشيته القديعة في
مكانه المألوف :

إن « أبا العلاء » ينتظر زوال الحرب ، ليخرج من مخبئه وينفض
التراب عن لحيته... !

فقال الشيخ متضاحكا :

أخشى أن يستبد النوم به أبي العلاء ، في محاسبه ، فلا
نستطيع إيقاظه بعد ... طالما رغبت إلى صديقنا ، أن يذكر همته
لإنجاز تلك الدراسة ، ولكنه يتهادى في تكاسله ...
فقلت وقد اقتعدت خشيتي المعبودة ، بجوار كومة الكتب :
سامع لصحك ... ادع الله لي أن أوفق ...
وصفق الشيخ تصفيقه المترامية ، وصاح ما وسعه جهده
بصوت خشيت ألا يبلغ عتبة الباب :
القهوة يا نور ، ...

وجذب من جانب خشيته كتابا أبله الطي والشر ، ثم قال
لصديقي المستشرق :
لنبدأ من حيث وقفنا أمس ...

وانطلق يتحدث عن شاعرية العباس بن الأحنف ، وغزله ،
مستشهدا بقطعات رفاق يحفظها له . فكنا نسمع مأخوذين بطلاوة
حديثه ودقة بحثه . وبيننا نحن في نشوة السماع ، إذا حسست خفيف
ثوب ، فأرسلت نظرة خفية نحو مصدر الخفيف ، فطالعتني على
الفور عينان دججوان ، تحتها لثام أسود هفهاف ، فشعرت بهزة
تنظمني ، وأنفيتني أختلس النظر إلى المستشرق ، فوجدته مطأطئ
الرأس ، يعبك بأطراف عباة ته ...

وقصدت "نور العين" ، مجلسها ؛ عن كُتب من الشيخ ؛ كما كانت تفعل ، ووضعت الصينية بإبريقها وأقداحها وبجمرتها بتطابير منها عبق البخور ، ثم شرعت تصب القهوة وتوزعها علينا : قدحا بعد قدح ؛ والشيخ ماضٍ في حديث "العباس بن الأحنف" ، ينشد من رقائق غزلياته ، وهو يتابع أنفاسه في جهد ، يستدر الإشفاق . وعلى الرغم من روعة حديث الشيخ لم أكن أوالى الإنصات له ؛ إذ كنت في الفينة بعد الفينة ، أرسل النظر إلى هاتين العينين اللعناوين اللتين يخفق دونهما الحمار الهفهاف ، فيخيل إلى أنها عينان معلقتان في الفضاء ، لا يتصل بهما وجه ولا جسد ... نبعان عميقان يزخران بالأسرار الغامضة ، ويفيضان بالأحلام العذاب ... ولم أكن أغفل عن مسارقة النظر إلى صديق المستشرق ، فما رأيته إلا متجمعا مسترخيا في جلسته ، يعتمد ذقنه بيده في إطاراق ، وكأنه في غيبوبة روحية ، يهيم في آفاق مترامية ...

وترادفت اللحظات ، ونحن في هذه الدنيا الغريبة : صديق مسترسل في حله السحري ، يكاد لا يفيق ، وأنا في جلستي أدير النظر حولي في هواة واسترخاء ، وهاتان العينان المعلقتان في الفضاء ، كأنهما نجمان يحاولان بلألائهما أن يفضيا إلينا في جنح الليل بكنه الحياة ، وهذا الصوت الذي يردده الشيخ يبدو كأنه

همهمة أشباح تنبعث إلينا من مكان محيق .
وبنته أفقت من غفوتي على ضربة ، أوقعها الشيخ على كتاب أمامه
وهو يقول :

أليس بما يدعو إلى إكبار هذا الشاعر القذ ، أنه عاش حياته
للحب ، ووقف شاعريته على الحب ، ومات وفيها صفيا للحب ؟
ما أروع قوله :

سلبتني من السرور ثيابا وكستني من الموم ثيابا
كلما أغلقت من الوصل بابا فتحت لي إلى المنية بابا
عذبتني بشيء سوى الصد فما ذقت كالصدود عذابا
فقلت :

لم يكن « العباس » إلا قلبا يخفق صباة ، وروحا تشف نقاء .
فسمعت صديقي المستشرق يهمهم ، وهو على حاله مطرق :
ما أعظم فداء هذا الشاعر القذ في سبيل حبه وقلبه ...
واستأنف الشيخ بروى من شعر « العباس » في نغمة متساوقة ،
وأحسست الثوب يتحرك ، وإذا بالعينين المعلقتين في الفضاء
تأخذان طريقهما إلى الباب : وإذا المستشرق يعلو بهامته يشيع
الشيخ الغارب بنظرات خاطفة ...
وغابت « نور العين » عنا كما قدمت ، لم نحس لها من حركة ،

ولم نسمع من صوت ؛ كأنما هي طيف هبط علينا حيناً ثم تزايل
عائداً إلى عالمه المستور

ولم يطل مكوثنا بعد ، فنهض صديقي يستأذن شيخه ،
ويضرب له موعد اجتماعهما القادم ؛ وتركنا الدار لندخل تلك
المناهة ، من الدروب الملتوية ، والحدارات المستعققة لسايجة في عباب
الظلمات . وكنا نلتمس الطريق ، كأننا نسير مدفوعين بهدى
الفطرة ، ونحن صامتان ، كلانا محلق في أخيلته ، مشغول بعالمه . . .
وتنادينا في الصمت ، وكان الهواء حديسا كثيفا ، زاد من وطأة
الوحشة ، فأحسست الحاجة إلى الاستئناس بحديث الرفيق في
الطريق ، وكأنه شعراً بمثل ما شعرت به ، فأخذ يضغط يدي
ويلاطفها ؛ كأنه يستعقب بذلك عن الكلام . . . وتبين لنا أننا
خرجنا من المناهة إلى شبه ساحة ، لم يتوضع من معالمها إلا مآذن
تشرئب بقاماتها المشوكة إلى العلاء ؛ كأنها تحاول أن تنخلص
من عالم الظلام والصمت واحتباس الهواء . . . ووقف صديقي
يحقق في تلك المآذن السامقة ، وقد شغفت قلبه ، وإذا صوت حلو
النغم يشق ذلك السكون منشدا :

كيف أسلو وعلقتي كلما لا	ح بريق تلفنت للقاسا
كل من في حماك يهواك لكن	أنا وحدي بكل من في حماك

وجعل الصوت يرجع في نشيده ، ونحن إليه بقلبيناهمفو ، مستمتعين
بعذوبة الإنشاد ، ثم تزايل الصوت وتيدا يطويه السكون
والظلام ...

وخيل إلى أن المآذن كأن هاماتها تتضائل وتقصر ،
والفيت نفسى وصديق تتحرك عائدتين إلى المتأمة ، تضرب في
الحارات والدروب ... وعاد الصمت يلقي علينا أثقاله ، وأنفاس
الهواء تزداد احتباسا وكثافة ، والظلمات يتراكم بعضها فوق بعض
طبقات ، ويد صديقي تلمس يدي وتضغطها بين حين وحين .
ووصلنا إلى « مغنى الرشيد » فاجتزنا الباب ، ودخلنا البهو
المعهود ، وجلس كل منا إلى حشيشة نواجه معصورة العينين ،
ينبسط تحتهما الخمار الأسود الهفواف . ولبثنا فترة موصولة أعيننا
بهاتين العينين ، وهمست قائلا :

في هاتين العينين تجمعت معان من الطراوة والاستكانة
والفتور ...

فقال لي صديقي المستشرق ، في صوت هادئ التبرات :
إنهما عينان لطيف بعيد ... طيف بعيد غاية البعد ... ليس
إلى الوصول إليه من سبيل ...
وهنا أسبل جفنيه ، وكأنى به قد أسلم نفسه لسلطان الكرى ...

وكنـت أزور الصديق المستشرق ، في الفينة بعد الفينة ،
ماواتنى الفرص ، وكان يؤسفنى أنى لست بمستطيع أن أجيبه إلى
ما يطلب من تواصل الزيارات ؛ إذ كان يحس أنه فى حاجة
إلى من يأتى بوجوده فى دنياه التى اختارها لنفسه ،
دنيا الحيرة والوحدة ، وإلى من يقضى إليه بما يضيق به صدره من
سردفين ... ولكنه على الرغم من ذلك كله لم يكن لينفس عن
نفسه بكلمة ، ولا يفتح صدره عن مكنون ، بل كان حيران فى
صمته المضطرب ، لا يزيد إذا اشتدت به الحال ، على أن يضغط يدي
ويلاطفها فى حنو ورفق ...

لم يجد فى برنامج حياتنا جديد . جلساتنا الهادئة فى « مقهى
الرشيد » ترعانا هاتان العينان يفسط تحتهما الخمار الأسود الهفاف ،
وزوراتنا لذلك « المعجم الأحمر » نستمع إلى ثرثرته الفيضة فى
شعر « العباس بن الأحنف » حيث تقبل علينا « نور العين »
بحفيف ثوبها ، حاملة صينية القهوة عليها الإبريق والأقداح
والجمرة الطيبة الشذا ...

ومرة خرجت وصديقى فى نزهتنا الليلية ، فقصدنا الساحة
ذات المآذن السامقة ، نرعى السماء وقد تناثرت فيها النجوم
التألقة . وبينا نحن واقفان فى صمتنا وعيوننا موصولة بالآفاق

البغيد ، إذا نجم يهوى محترقا ، وقد سطع بريقه سطوعا يخطف
البصر ، ثم ما لبث أن ابتلعه غياهب الظلمات . . . فقال صديقى
وهو فى وقفته متطلع النظرات :

ما كان أشد توهج ذلك النجم وهو يلقي بنفسه فى أحضان
الليل البهيم . . . إلى لآحس بذلك الليل وقد بسط للنجم ذراعيه
ليضمه إلى صدره ضمة الأم الروم . . . إن علماء الفلك ومن إليهم
سيقولون فى مثل هذا النجم إن انفجارا حدث فيه ، أو أن
اختلالا وقع فى نظام الجاذبية ، فكان أن تهاوى النجم محترقا
وأدركه الفناء . . . ولكن لم حدث الانفجار ؟ . . . لم وقع
الاختلال ؟ . . . لا يدرك أحد . . . وما كان النجم ليدرك ذلك
المصير . . . إنه أحس دفعة واحدة بتزلزل فى كيانه ، أعقبه اشتعال
فناء . . . ليس فى الوجود شيء بقادر على أن يحصى ذلك النجم
بما أصابه . . . ثمّة يد خفية تدبر الكائنات ، لا تسمو إلى إدراكها
العقول والأفهام . . . السنامسيرين فى هذا الكون لا يخبرين ؟ . . .
علينا أن نذعن لما يمليه القدر بلا مكابرة ولا عناد . . .

ثم أخذ بيدي ، فسرنا الموبنى وتابع صديقى قوله :
أليست أعمار مرحلة فى حياة هذا النجم وأعظمها هى تلك
اللحظات التى احترق فيها ، فوهب كل ما اختزن فى قلبه من

حرارة وضياء . . . إن ملايين السنين التي قضاها من حياته في مسبح الفلك لتعد تافهة زمنية إذا قيسَت بهذه اللحظات التي عاشها، وهو يهوى محترقا في الفضاء . . . ما أجملها متعة وما أروعها حياة . . . شبيه بهذا النجم إنسان يظل عمره جامد الحس بارده غابي الوجدان راكده، وما هو إلا أن تنبعث في أعماقه حرارة الانفجار، فيلتهب باهر الضوء، خاطف البريق . . . لحظات يقضيها تحفل بمتعة الدنيا الخالصة، ويمكن فيها سر الحياة الحقة، لا يعدلها شيء في الوجود . . .

ثم غشيه الصمت، فلم تنفج شفتاه عن حرف؛ كأنه يخشى أن يتسلل من بينهما سر كمين .

وتعاقبت الأيام . . . ولاحظت على صديقي أنه لا يزور الشيخ إلا لماما، وأن شحوبه يتزايد، وانطوائه على نفسه يتواصل، وأن ذلك البركان الذي يحنى عليه ضلوعه يحتدم مضطربا فلا يجد له من متفلس . . . وكان صديقي إذا اشتدت به كربته، خرج إلى تطواف بعيد الشقة، تكل منه الأقدام، حتى لقد نتغلغل في رحاب الصحراء، ونكاد نقيه في شعابها الموحشة. وقد يتفق لنا أن نجوز بدار المعجم الأحمر فأرى الصديق يخفف من خطاه، ويسير كأنه يطوف بأرجاء معبد أو مزار. وقد يرفع عينه قليلا

إلى حيث نوافذ المنزل يتضح منها ضوء هزيل . ثم بحث خطاه إلى
مفناه ، وقد بلغ به الجهد كل مبلغ ، فلقى بجسده المتخاذل على
الفراش . . .

ولما هالني اشتداد الأمر به اقترحت عليه أن يستبدل بداره مسكنا
في حي آخر ، ينقله إلى بيئة جديدة ؛ وأسلوب من العيش جديد .
فقال لي :

أريد أن تسليني ما أنعم به عما بقي لي من أيام إجازتي في
هذا الفردوس ؟

فصحت به :

أهذا تسميه فردوسا ؟ . . . إنه الجحيم المستعرة . . . إنك
تذوب وتتحرق على عجل . . .

فابتسم لي ، وهو يشد على يدي ، ثم قال :

لكل منا تفسيره لمعنى الجنة والنار . . .

وأطرق برأسه وقتا ؛ ثم قال :

إني أذوب حقا وأحترق . . . ولكن الإنسان في بوتقة
الانصهار تبرأ نفسه من النفايات ، ولا يبقى منها إلا الجوهر
الخالص . . .

وقصدت دار صديقي يوما ؛ إذ كنت معه على موعد لقاء

لزيارة شيخه « المعجم الأحمر » ، فقال لي :
أنا اليوم مجرود ، فلتبق معي في الدار لا تبرحها ...
واتخذ كلانا مقعده على الحشايا . ونحن نتناول الشاي وندخن ،
وكان أول ما استرعى نظري أنى وجدت مكان الصورة خاليامنها ،
فالتفت إلى الصديق على الفور أقول :
أين « شهر زادك » ؟
فابتسم ابتسامة أسي كظيم وغمغم :
لقد توارت ! .. استردها عالم الأرواح ... ألم أقل لك من
قبل : إنها طيف من الأطياف ؟ ...
فقلت عليه قائلًا :
زدني إيضاحا ... ما هذه الأحاجي ؟ ...
فرنا إلى بعينه الصافية الزرقة ، وظل وقتنا لا يتكلم ، ثم قال
وقد ازور يبصره عني :
هل لك في أن تقرأ فصلا من « رسائل إخوان الصفا » ؟ ...
لقد انتهت إلى مخطوطة نادرة لبعض هذه الرسائل ...
فصعدت فيه بصرى فترة ، وقلت :
وأين « ابن الأحنف » ؟ ...
فرمى بنظره في عرض الحجرة ، وقال :

طويته ... فرغت منه ...

— وهل يُطوى حديث الحب والغزل ؟ ...

فأجابني وهو على حاله مشرد النظرات :

متى كان في مقدورك أن تطوى حديث الحب والغزل فافعل .

تحسن صنعا ! ...

والفيتة يستخرج مخطوطة الرسائل، وأقبل يقرأ جهوَرِيَّ

الصوت ، باذلا أكبر الجهد في التفهم والتعن والاستخلاص ،

والفيتي أشاركة الدرس وأسا جله الرأي . ومكثنا فيما نحن فيه كبير

وقت ، وكان وجه صديقي يزداد احتقانا وعيناها يتوضع فيها الجهد

والكلال . وإذا رأسه يترنح رويدا ، ثم يسترخى على الحائط خلفه

مطبق الجفنين ! ...

وتوالت أيام ، وأنا أجد صديقي تنتقل به الحال من سيء إلى

أسوأ ، فقد لبث رهين الدار لا يبارحها في عشيّة أو غداة ، وعكف

على رسائل إخوان الصفا ، يتعمق فيها أدق تعمق ، ويعنت نفسه

فيها أبلغ إعنات ، وكأنه يريد ذلك لنفسه عن قصد ...

ولا حظت أنه كلما طاف بذهني شأن الصورة ذات العينين

الدعجاوين ، والخمار المفهاف ، وحاولت أن أطارح صديقي الحديث

فيها ؛ أراه — وكأنه فطن إلى ما يدور بخلدی — يأخذ على السبيل

ويشغلني بأحاديث مختلفات تطوح بنا بعيدا عن ذلك الحديث .
وطالت قرات صمته وإطرافه ، وتبين في جسمه الضنى والنحول ،
حتى لقد رأيت أصابعه تلازمها الرعشة حين تمتد لأخذ كتاب أو
تناول قدح . فأدر كنتي رحمة لصديقي ؛ وإشفاق عليه ، بما حل به ،
فأمسكت يديه ، وقلت له في عزم وتأكيد :

لا أرضى لك هذه الحياة .. لقد صبح عزمي على خطوة
في شأنك ... سأحضر بعد غد لنقلك إلى مسكن آخر ، رضيت أم
أييت ... نستطيع أن نساfer إلى الضيعة ، أو نقيم أيا ما في إحدى
الضواحي الطيبة الهواء ...

فلم يعقب على كلامي بشيء ، ولم يردد على أن ربت يدي ملاطفا
وهو يبحث إلى بابتسامة مستغلفة زادتني حيرة إلى حيرة ...
وفي اليوم الموعد وفدت على « مَخْنَى الرشيد » وقد انتويت
أن أنفذ عزمي على نقل الصديق إلى مسكن آخر . وما كدت أقارب
الدهليز حتى أقبل على « مسرور » يزحم المعر بجسمه المتكتل وعمامة
الطويلة التي تناطح السقف ، وقال لي مبادرا :

لك عندي رسالة من سيدي ...
وأخرج الرسالة من نطاقه ، ودفع بها إلي ، فقضضتها على الأثر ،
وقرأت :

« صديقي الكريم :

كان من مقترحك عليّ أن أستبدك بمثابتي مثابة أخرى ، فلم
ينفتح لي من الرأي إلا أن أختار حومة القتال ، فربما أقدرني الله
على أن أقوم هنا لك بعمل ذي جدوى . سأذكر لك كرم صحتك ،
وأشكر لك صفو مودتك . هل يسمح الدهر بأن نلتقي يوما ؟
حبك الخاص : المستعين بالله ،

وبارحت الدار ، والرسالة في يدي ، وأنا في موجة من الزهول
والآسى ، دون أن أبادل « مسرورا » أى لفظ ...

ومضى شهر لم أعلم فيه من نيا صديقي شيئا ، كثر أو قل ...
وبينا أنا يوما في مكتبي ، منصرف إلى بعض عملي ، إذ دق
« التليفون » ، فإذا المتكلم على ما بدا لي جندى أجنبي ، يبلغ رسالة
مقتضبة ، يدعوني فيها إلى زيارة مستشفى عسكري بالجيزة ...
وما كدت أضع السماعة حتى خفق قلبي خفقة وله وجزع . ونهضت
من فوري عجلا إلى ذلك المستشفى . فلما بلغت ، واتخذت إجراءات
الإذن بالدخول ، ذهب بي الحارس إلى حجرة الانتظار ، وكانت
صغيرة بيضاء الأثاث ، يضاءه الطلاء ، تطل نوافدها على مروج
وحقوق . وكنت قلعا لا يستقر بي المقام ، أذرع الحجرة تارة ،
وأقف أمام النافذة تارة أخرى ... وبعد وقت دخل على مرض طلق

المحيا ، أبيض الحلة ، يلتمع نظافة وأناقة ، وقال :
صديقك ينتظرك ... أرجو ألا تطيل زيارتك ... لقد
أجريت له حديثا عملية جراحية ذات خطر ...

وخطونا إلى حجرة المريض فإذا هي حجرة مسدلة الأستار ،
يشع فيها الدفء ، وفي ركن منها سرير ، تبيت بين أغطيته
ومفارشه وجها بالغ الشحوب ، شديد الامتقاع ، وجها لم يكن
بالغريب على ... وتقدمت مضطرب الخطو ، فقابلتني العينان
الزرقاوان ، وقد بدتا صغفاء ، حتى ليكاد الناظر يستشف خلفهما
طيف تلك الروح الوادعة الحنون ... وتخيلت على ثغر الصديق
ابتسامة رقيقة ، واضطربت شفثاه بصوت مهزول راعش :

لقد سمع الدهر بأن تلتقي ...
ولا أدري على وجه التحقيق بأي كلام أجبت ، ولكنني أذكر
أنه استل يده من بين الملاحف ، وأخذ يدي يشد عليها ، فشعرت
بكفه مقرورة غير متمالبة .

ووقفت صامتا أحاول أن أكسب وجهي مظاهر الرضا
والاطمئنان ، حتى أخفي عن صديق مارا عني من حاله ...
وبعد قليل ترك يدي ، وراح يتجسس بأنامله طيات وسادته ،
فإذا به قد أخرج صورة صغيرة يحتويها إطار أنيق ، ثم راح يتوسمها

لحظات . . . ورأيت يسيل جفنيه ، وتراخى يده ، فأنحدت
الصورة منها حتى استقرت على موضع قلبه . . . فاختلست النظر
إليها ، فإذا هي عينا دجأوان ، ينبسط تحتها خمار أسود هفهاف . . .
وخيل إلى أن هاتين العينين الحالمتين ، وهما ترنوان إلى ، كانتا
تدبتين ، تتحير فيهما قطرات من دموع . . .

تأمين على الحياة

قهوة صغيرة ، أو قل حانة حقيرة ، ينحشر فيها جمع من الصعاليك والفارغين ، يقضون فيها الوقت ، أو بتعبير أليق بهذا المقام : يقتلون الوقت ، بثرتهم الحادة العنيفة ، ومجادلاتهم التي يسودها العناد والمكابرة مفضية بهم إلى المهاترة والمشاجرة والعراك ، على حين يتجرعون تبايات الخور ...

من بين أوشاب هذه الحانة المدمنين ، شاب يدعى «شافعي» أو «الأستاذ شافعي» كما يصره هو نفسه على أن يدعو نفسه بهذا اللقب ...

ولم لا يكون أستاذا ، وهو الذي لم يكده يخفق في حياته الدراسية ، وتلفظه معاهد التعليم ، حتى انزعج كاتبا ، أوشبه كاتب في بعض دور المحامين ، فشهد المرافعات الخطيرة تتجاوب أصدائها في جنبات المحاكم ... ومرت أمام عينيه أضياع القضايا ، فملقت بأنظارة أمهات الاصطلاحات القضائية ، وتناهت إلى سمعه أحاديث كتاب المحاماة ، تتناول إجراءات المحاكم وما إليها من أساليب الحجز والإبذار والكيد للخصوم ...

وهو على بذاذة هيئته يحاول أن يبدو أنيق المظهر ؛ فرباط رقبته المهلهل الذى قرحت الأدران يعقده عقدة ضخمه كأنها سلحفاة آخذة بتلايينه ، وشعر رأسه العامر بالمقادير يرجله ويلطخه بالرخيص من الدهان ، وقد طل من جيب سترته الأعلى قلم حبر ، أو بالأحرى أنقاض قاعسة من قلم ثمين ، لو أوتيت معجزة النطق لصاحت : ارحموا عزيز قوم ذل ... !
فإن هذا القلم أقرب إلى الرمز منه إلى الواقع ... ما أعياه عن أن يخط حرفا بله كلمة ... ولم يكن الفتى ليريده على أن يجرى بشيء على القرطاس ، وإنما كان يتخذ شعارا أو شارة تعلن أنه من حملة الأقلام ... !

كان الشاب يختلف إلى ذلك الحان ، دائبا لا يتخلف ، ويمضى أطراف النهار وآناء من الليل لا يبرحه إلا خطفا ... وكان صاحب الحان يلقاه بوجه عبوس ، ونظرة نكراء ، يتوضح فيها الإذراء ... أليس فى ذلك كله آية يئس منه على ما يتمتع به الشاب من ملحوظ المسكاة فى دنيا التصملك والفراغ ؟ ...

وعلى الرغم من أن هؤلاء الرواد فى ذلك الحان قد ملتهم كراسيم ، وضجرت بتشبههم تراهم لا يشعرون بطائف من الملالة والضجر ؛ إذ كانوا يأنسون بهذا الصخب الذى لا يفتر ، وتلك

المحاورات التي لا يخبوها أوار ، ومتى كلت حناجرهم أشرعوا
أبصارهم إلى الطريق يجمعون فيه مجالا للبتة والسوى ، فقد كان
الحان قائما في ملتقى شارعين من أكثر شوارع القاهرة ، ازدحاما
وحركة ... المركبات على اختلاف أنواعها في جيئة وذهوب ؛
والسابلة على تباین طبقاتهم وأزيائهم ، لا يفتقر تاجعهم من رجاله
ونساء ...

في أصيل يوم كان ، الأستاذ شافعى ، يتحدث إلى حشد من
الرفاق ؛ وهم متطلعون يستمعون إليه دون أن يفقهوا له قولا ،
وما جعلهم يصبرون على الاستماع إلا أن كلا منهم يريد أن يوم
غيره بأنه من أولئك النفر المسافرين للتطور الاجتماعى
المشاركين في جديد أنظمتهم وأوضاعه ...

ومن حق « الأستاذ شافعى » أن نسجل له ما أوتى من بصر
نفّاذ مؤثر ، يقلبه فيمن حوله ، ولسان ذلق تترادف عليه الجمل
طنانة رنانة ؛ والكلمات غمة ضخمة ، يلقيها مصطنعا لمجة المحامين ،
متخذنا طرائقهم فى الإشارة والتلويح ، فتسمع منه أمثال قوله :
الجهل بالقانون لا يعنى من المسئولية ...

المهم برى حتى تثبت إدانته ...
أياخذ العامل أجره بحسب إنتاجه ؟ أم بقدر حاجته ؟

وبينما كان « الأستاذ شافعى » متدفقا فى حديثه ، والجمع حوله شاخص مشدوه ، إذا بضجة تتعالى فى ملتقى الشارعين ، فالتفت الأستاذ ناحية الضجيج ، فألقى الزحمة تزايد ، والطريق تتعطل حركته . وماهى إلا أن قفز من مقعده ، واقتحم الزحام ، وأرهف سمعه يتعرف الخطب ، فعلم أن صبي لبان كان يسرع بدراجته الخربة ، عليها قوارير اللبن يوزعها على طلابها فى البيوت ، وفى ملتقى الشارعين صدمت إحدى سيارات الأجرة مؤخرة الدراجة ، فألحقت بها نوعا من العطب ، وكسرت إحدى قوارير اللبن ، فوقف الصبي يتدب سوء حظه ، ويتحسر على ما أصابه ، ويكرر على مسامع المتجمعين حوله خوفه مما ينتظره من حساب وعقاب ، على حين كان السائق يتصايح ، منها الصبي بجمله نظام المرور ، وحداثه عهده بسياسة الدراجات . . .

وظل « الأستاذ شافعى » يدافع الناس بمنكيه ، حتى بلغ مكان الخصمين ، فجعل ينقل بصره بينها فأحصا ، وهو يرقب مجرى الجوار . . .

وأوشك الجمع أن ينحازوا إلى جانب السائق فيما أدلى به من حجة تنفى تبعته . . . وكيف لا يصدقون رجلا يتربع على مقعده العتيد فى سيارة ضخمة ، يصور موقفه تصوير خبرة وتدقيق ؟

وكيف لا يكذبون ذلك الصبي الغرير الفأفأ الذي لا يحسن إلا الشكوى
والتحسر والانخدال ، معبرا بذلك الوجه الشائه الذي تتخالف
أقسامه حتى لتناى به عن طلعة الإنسان ، وتجعله أدنى إلى مرتبة
العجائز ، فلا يثير بشكله ومجديته إلا السخر والاستهزاء ؟
وما هي إلا أن تقدم ، الأستاذ شافعى ، يجابه السائق بقوله :
يجب أن نحدد المسؤولية تحديدا واضحا يا حضرة ... أنت في
سيارة ، وهذا الصبي في دراجة ، والفرق جلى بينهما ، من حيث
القوة على الضبط والربط ، ولأنه سائق لك ، وأنت من ورائه تراه
ولا يراك ...

ومسح صبي اللبثان لعبه المتسائل على زوايا فمه ، ودعك أنه
المتفش ، وحلق في ذلك الشاب مشدود النظرات ...
وصمت الجمع إنصاتا إلى ذلك المدافع المنطيق ، بصوته الجهير ...
ودبت الحماسة بين جنبي ، الأستاذ شافعى ، فعلا بصدرة
وأصلح رباط رقبة المتنفخ ، ثم انتزع قلبه العتيد من جيب سترته
الاعلى ، واندفع يشهره في وجه السائق ، وهو يقول :
القانون صريح في تحديد المسؤوليات ... إن ...
فقاطعه السائق متحديا يقول :
لا تدخل فيما لا يعنيك يا أفتدى ...

وأحس « الأستاذ شافعي » أن السائق يتحفز لشر ، نفشى
المنبة ، وألقى قدميه تراجعا . . . ولكنه لمح شبح الشرطي يتخطى
في طريقه إلى الميدان ، فعاودته الحية ، واستأنف قوله متصاحبا
متفخخ الأوداج :

كيف لا يعنيني ؟ . . . أعرف من أنا ؟ . . .

فأجاب السائق ساخر اللهجة :

لم أشرف بعد يا جناب « الحكمدار » . . .

فغضب عليه « الأستاذ شافعي » وقد ملك أعصابه ، قائلا في

تؤدة ، وهو يحكم بخارج الحروف :

أنا السكرتير العام في نقابة المحامين ، وعضو مجلس الإدارة

المنتدب . . .

وترأى شبح الشرطي ، وقد تصيدت أذنه ما بعض ما تقوه به الشاب

النائر ، فاستشعر له شيئا من التقدير ، وراه يتجه إليه ويسترسل أمامه

في نبرات خطاية يشرح قصة اعتداء السيارة على الدراجة ، غالبا

في التفصيلات ، متخذ لقافي التعليل والتأويل ، واختتم خطبته بقوله :

القانون صريح . . . من أضر بآخر لزمه التعويض . . .

وكان صبي اللبان قد انتبذ بدراجته مكانا غير بعيد ، وعينه

تتهب « الأستاذ شافعي » ، وفه ينفرج عن بسمه كريمة بلهاء . . .

واتخذ الشرطى سبيله إلى مكان الدراجة ، وقد اكتسى وجهه صبغة من
التزمت والأنفة ، وراح يفتح ص الدراجة كأنه خير قى ، يستشف
بنظره حقائق لا يعلمها إلا الأقلون . . .

وما إن أتم بحثه وخصه حتى انطلق إلى مكان القارورة يقلب
النظر فى كُسارها ؛ كأنه يستجلى غوامض مصرعها ، ثم داعب
حطامها بجذاته الثقيل ، ومالبث أن ركله ركلة ، ألقت به عند حافة
الطوار بجها عليه . . .

ورجع إن السائق يقول غائب القسمات :
خير لك أن تؤدى للصبي تعويضا . . .

وسرعان ما سرت فى الجمع مهمة استحسان لهذا رأى ، وانقلب
الجمهور فى لحظة ظهير للصبي ، يأخذ السائق بأن يؤدى التعويض . . .
وألقى السائق نظرة على الشرطى ، فلبغ شاربه يهتز انفعالا
واسة نجازا . . . وألقى شرادم من غلبان الطريق قد تحلقت حوله ،
وتألبت عليه ، وإذا «الأستاذ شافعى» يتصايح ، معددا ما لحق الصبي
من أضرار ، وما على السائق من تبعات . . . فلم يجد السائق مفيضا
من الاحتكام إلى الشرطى فى تقدير التعويض ، راضيا بما يكون
من حكمه فى هذا الصدد . . .

فأزاح الشرطى طربوشه إلى الوراء ، وقتل شاربه ثم انطلق بقوله :

أعطه عشرين قرشا ... لقد أصاب الدراجة تلف شديد ...
دفع السائق هذا المقدار صاغر ، وتناول الصبي النقود فاغراقه
من دهشة واغتياب ، وعاح الشرطي بالجمع أن تفرقوا .. وسرعان
ما انقشع الزحام ! ...

انطلق صبي اللبان يجر دراجته في تسكع ، وهو ينظر إلى
يده مطبقة على النقود ، فلم يكن لديه موضع آمن من هذه القبضة
القوية ... أيا آمن على النقود جيبة المتهتك ، في ذلك الثوب البالي
المهلل ، الذي لا يؤمن على شيء ؟ ...

سار وقتا لا يخطر بباله شيء ، ولا يفكر إلا في مصرف هذا
المبلغ الضخم ... إنه أكبر مبالغ ملكه منذ عرف المال حتى هذه
الساعة البيضاء ! ...

وفيما هو على حاله ، يقدر ويدبر ، أحس شخصا يتهدى على
قرب منه وإذا هو « الأستاذ شافعي » ينظر إليه في تلطف وهو يقول :
مارأيك ؟ .. أمسرور أنت ؟ ...

فانبطت أسارير الصبي . وأطلق ضحكة شوهاء : وقال :

طال عمرك . وبقي أولادك ! ...

— يبدو لي أنك ولد رقيق الحال ... ما اسمك ؟ ...

... « الفولي » ...

— ماذا تعمل ؟
— صبي لبان ! ...
— عند من ؟ ...
— عند « المعلم فتح الله » ... ألا تعرفه ؟ ... الرجل ذو
الشارب الغليظ ، والكروش العظيمة ...
وانطلق يوالى ضحكاته ، فأسكته « الأستاذ شافعى » بإشارة
منه ، وقال له فى جد :
ماذا أنت صانع بالدراجة العاطية ؟ ... وماذا أنت قائل للعلم ،
فى شأن قارورة اللبن المفقودة ؟ ...
فنظر إليه « الفولى » ذاهلا يقول :
لم أفكر فى هذا قط ...
— إنه سيطلبك بالعشرين قرشا ؛ لأنها تعويض عن قارورة
اللبن ، وعطب الدراجة ...
فبدا على وجه الصبي حيرة وتخوف ، وجعل يردد ، وكفه
زداد انقباضا على ما فيها :
كيف يأخذ النقود منى ؟ ...
— هى من حقة ...
وحنا « الفولى » رأسه فى قنوط واغتمام ؛ وأخذ يرده :

وماذا أصنع إذن ؟

— نبحث المسألة ؛ لعلنا نجد لك مخرجا معقولا . أنت بائس محتاج ، وأنا مستعد ان أعينك على أمرك ...
فقال الصبي وقد شرق بدمعه ، ونظر إلى الشاب نظرة توسل وركون :

طالب عمرك وبقي أولادك .. أنا محتاج حقا ... أنا يتيم ليس لي من أعول عليه ... وأنا أعمل عند المعلم بالقوت الضروري ، وباليته راض عني ، فلشد ما يضربني ويخزني ويهددني بالطرد ! ...
واندفع يشكو ويتضرع ، راغبا في طريقة يحتفظ فيها لنفسه بالنقود ... وراح الأستاذ شافعي ، يدور حول الدراجة متفحصا إياها بعين الخبرة ، أو بالحرى يوم « الفولى » ، أنه ذلك الفاحص الخبير ...
ثم همهم :

ربما لاحظ المعلم عطب الدراجة ، فسألك عنه ، وربما غاب عنه الأمر ، وبذلك تنجو من حسابه وسؤاله ... أقوى النظر هو ؟ ...
— عينه كعين الصقر ...

— هنا نقطة ضعف في المسألة ... وإمكن ثمة وسائل لإنقاذ الموقف ...

— بربك ساعدنى ...

وتشبث به «الغولى» ، فراح «الأساذشافعى» ، يعتصر جهته
يرهة ، ثم واجه الصبي مباغتاً إياه قمر له :
سألقنك بعض جمل قد تنفعك . قل إن ما حدث كان قضاء
وقدرا ، ولا راد لقضاء الله . . قل إنك سليم النية لم تضمر أى
مؤء ... قل إن السيارة حين افتحمت للدراجة أقبلت أنت على
الدراجة ، تحميها وتحمى ما عليها من فوارير ، حتى دى جسمك
وتمزق ثوبك ...

ووقف الشاب يتوسم الصبي لحظاً . ثم قال :
يجب أن يدى جسمك ، وأن . رق ثوبك ...
— كيف ؟ ...

— أعاجز أنت عن أن نخدش نفسك ، ونشق ثوبك ، وتمرغ
فى التراب ؟ ...

— أليس من هذا بد ؟ ...

— لا بد من ذلك ، لا بد ... لأحاص لك إلا هذه الوسيلة ...
إن للملم إذاراك على هذا النحو يشفق عليك ...
فابتسم «الغولى» ابتسامته العريضة ، وقال :
أمرك ...

وانتهى ، الأستاذ شافعى ، و ، القولى ، ناحية من الطريق
مهمة ، وشرع الصبي يؤدي لنفسه مهمة الخدش والتزيق والتمرغ ،
وفق التعليمات المرسومة ، حتى بلغ من ذلك ما أراد . .
فما إن رآه ، الأستاذ شافعى ، حتى ربّت كنفه ، وقال :
أحسن ! . . .

ثم تابع قوله :
لاتنس أن تتدأى إلى الحانوت ، متخاذل المشية ، ذليل
القسيمات ، تتلوى من الألم . . .
ثم استمر بشرح له الخطّة . ويلقنه الأجوبة ، ويزوده بالنصائح ،
وبما يواجه به المفاجآت . . .

وبعد أن وعى ، القولى ، ما سمع ، تها للبنى فى الطريق ،
فنظر إليه ، الأستاذ شافعى ، ملياً ، ثم تصنع ابتسامة وقال :
أراهن على أنك تريد منى أن أرافقك فى مهمتك ، حتى
أخلصك من سطوة معلمك . . .
فأجاب الفتى فى سداجة :

— أبغاك الله ، وحفظ أولادك . . إن هذا لجيل منك . . .
وهنا وقف ، الأستاذ شافعى ، وقفة حزم ، وقال :
ولكن مسألتك أضاعت من وقى ساعتين فماذا تبغى منى

فوق هذا ؟ ... لدى قفزة همة لا تخص من إنجازها ، وجلسة
في النقابة على أن أوجهها ...

فأخذ ... ولي ، يتضرع قائلا :

! حائف من المعلم ...

ولبت « الأستاذ شافعي » يسط شففيه في امتعاض ، مظهرا
التردد والإحجام ، ثم بسط ساعده ، واستشار ساعة يده الخشبية ،
وداعب ذقنه لحظة ، وأخيرا قال :

لابأس ... دقائق أخرى من أجلك ... أنت ولد تستحق
المساعدة ...

وابتهج « الفولي » بذلك الفوز ، فأقبل على يده الأستاذ
شافعي ، يغمرها بقبلائه ...

وأخذا يتوجها بوجه حانوت اللبان ، فقال « الأستاذ شافعي » :
عليك أن تتقدمني خطوات ، حتى لا يراك أحدمعي ! فيرتاب
في الأمر ... إني مراقبك من بعيد ، وسأندخل في الوقت المناسب ...
وأخرج علبة لفه وفتحها ، ثم قذف بها في عرض الشارع
متسخطا يقول :

ليس فيها لفائف ! ...

فقال « الفولي » على الأثر :

— أذهب لأشترى علبة ؟ ...

— لا مانع ...

وأخرج محفظته المتفتحة بالأوراق ؛ وألقى بصره عليها ، ثم
زوى ما بين حاجبيه ، وقال :

لاداعى للقائف الآن ..

— ولم ؟ ...

— ليس معى إلا ورق مالى كبير لا يصرف هنا ...

قال ذلك ، وقد سبط عينيه على كف الفتى ، يريد أن ينفذ
لبصره إلى « الريال » المختق فى قبضتها ... فقال « القولى » وقد
أحس النقود تضطرب فى يده :

ربما كان من المستطاع صرف ورقة من الورق الكبير ...
ألا نجرب ؟

فقال « الأستاذ شافعى » محتدا :

حسبى ما ضاع من وقى ... أتريد أن تفوتنى القضية وجلسة
النقابة ؟ ...

— لأحب أن أراك متضايقا ، كما أنت الآن ...

فصاح به الأستاذ شافعى ، صيحة عنيفة :

قلت لك إتنى مرتبط بمواعيد ...

فوقف « الفولى » منكشا ، ثم أخذ يهرش رأسه ، وانسرح
يفكر ، وهو يردد بصره بين قبضة يده يحتزن فيها كنزه وبين
« الأستاذ شافعى » يقف وقفته العصبية ...

وأخيرا لم يجد بدا من أن يقول :
أذهب لشراء علبة وأدفع ثمنها عما عندى ... وحين تصرف
الورقة ترد إلى الثمن ...

— ما هذا الكلام الفارغ يا ولد ؟ ...
وبعد تمنع ومناقشة ، أقبل ، « الأستاذ شافعى » ، فد يده واتزع
النقود من يد الصبي ، وهو يقول ...
وأفضل أن أشتري علبة اللفائف بنفسى ... اسبقنى وأنا
وراءك ...

وسار « الفولى » يجرّ دراجته المتداعية ، وقوارير اللبن يرتطم
بعضها ببعض ، وكأنها تتسائل عن مصيرها ، بعد أن تغير البرنامج
المسوم لها كل يوم ...

تبع « الأستاذ شافعى » خطوات الصبي ، وكان كلما قطع من
الطريق مرحلة ازداد عنه تباعدا ... وبين الفنية والفنية يلتفت
إليه « الفولى » ، ليشعره بأنه أمامه يهديه السبيل ...

وازدحت السابلة أثناء السير، فلاحت الفرصة للأستاذ شافعى،
كى يشجى بالغنيمة، ولكن عين الفولى لم تتم عنه، فأفسدت عليه تدبير
الحرب، وأحس كأنه محصور يخضع لرقابة ذلك الفج الغريزى...
على أنه اعتصم بالصبر، وحث خطاه، مزجها فى دخيلة نفسه
أن ينتهر أول فرصة للخلاص من تلك الرقابة البلهاء...
ولكنه ما عثم أن ألنى نفسه قبالة حانوت اللبان، حيث تهباً
الفتى ليلج بابه، متخاضع الهامة، ذليل الخطا...

وكانت وجهه الحانوت يضاء مغبرة قنرة، وعلى عتبة الباب
يتسائل الماء فيملاً اليقعة بالأحوال...

ومن خلال زجاج الوجهة يترأى مصباح كهربى، يتدلى فى
نحو مبتدل، ويتمافت شعاعه الواهن على تمثال رخيص شأنه لحيوان
أوضح ما فيه ضرع كبير، لاتدرى أبقرة هو، أم لبؤة، أم هرة
عجسوز؟

وخلف هذا شبح كتلة بشرية ضخمة غير واضحة المعالم، يتعالى
منها صوت متحشرج، تشيع فيه رنة السخط، ما أشبه به خشخشة
مذابح خرب...
لمح الأستاذ شافعى، هذا المنظر، وتناهى إليه ذلك الصوت
فألنى نفسه قد انزوى فى ناحية يتطلع ويتسمع، يدفعه الفضول إلى

تعرف ما يكون . واستطاع أن يتابع في صسوبة خلف زجاج
الوجه الكدر مشاهد الرواية بين بطليها : المعلم والصبي

الكتلة البشرية تتحلحل . . .

شبح ، الفولى ، عن كسب منها يتخاذل تخاذل الظل الناصل أمام
الضوء الكاشف

الحشرة تنقلب زجرة حبيسة ، كزجرة الإعصار حين يتهيا
للزيف . . .

الكتلة تنقض على الظل الناصل ، فإذا هولاء عين ولا أثر . . .
الإعصار يعصف ؛ كأنه دوامة مواتجة ، يضع فيها صراخ
الاستغاثة المضضع . . .

وما هي إلا أن انقذت من الحانوت إلى الطريق تلك المزة
الآدمية ، التي تدعى ، الفولى ، ، ينبعث منها تأوه وانتحاب . . .
وسرعان ماتهافت حول الصبي الصريع نقر من النضولين ، ما كاد
يقبضهم حتى انطلق يشكو لهم بأساءه وما حل به من ضرب
وجيع ، بلا جريرة ولا ذنب . . .

وكان يتطلع يمنة ويسرة باحثا عن منقذه وأمين كنزه الثمين ،
فلم يره على فرط التنفت والتصفح للناس . . .

وعمرت الحلقة بعابرى السيل ، وأخذ الناس يتذمرون

ويتبادلون شعور الاستياء من صاحب الخاتوت ، بعد أن تجلى لهم ما برح بالفتى من الآلام ، وما أصابه من جراح
في هذه اللحظة بزغ المنقذ . . . فاخترق الحلقة ، وشرع يتسامل ، وتطلق وجه الفتى ، وتهادت الكتلة البشرية الضخمة بإشارتها الغليظة ، وهي تصيح بالجمع أن يتبدد ، غفلا ، الأستاذ شافعى ، خطوة إلى الأمام ، وقد علا بصدره ، وانبرى يسوى رباط رقبته المتنفخ ، يستمد منه الحمية والتشجيع .
وقال :

هذا الولد مظلوم ، خليك بالرائاء
فأرعد المعلم قائلا :
إنه أخيت مخاتل خداع
... وهذه الجراح ؟ ... وتلك الكدمات ؟ ...
واقترب ، الأستاذ شافعى ، من الصبي يتحسس أوصاله ، وصاح ملتفتا إلى الجمع :
يلوح لى أنه قد أصيب بكسر فى ترقوته
فهمهم الجمع :
ترقوته ؟
والفتى « الأستاذ شافعى ، إلى الصبي ، يقول :

قم يا ولد...!

وما كاد الصبي ينهض ، حتى صاح ، الأستاذ شافعى ، .

شدّ ما يتألم...!

وفي هذه اللحظة سُمع الصبي يجأر بالشكوى ، ويتوجع . . وتابع
، الأستاذ شافعى ، قوله :

إنه ليتعذر عليه أن يقيم صلبه . . . انظروا إليه ، يتهاك على
الأرض ، مشخنا بجراحه .

وما أسرع أن ارتدى الفولى ، على الأرض ، فواصل الشاب
قوله :

يا لله...! المسكين يكاد يفقد وعيه...!

وما إن أتم قوله ، حتى تمدد الصبي خامد الأنفاس . . .
وصاح الشاب يقول :

هذا ما كنت أخشاه...! حقا أن ترقوته قد كسرت ، وهذه
أعراض انكسارها . . . يجب أن تستدعى سيارة الإسعاف ،
وإلا . . . وإلا أفلتت فرصة العلاج...!

طرقت هذه الكلمات سمع المعلم ، فبدا عليه التعجب والدهش ،
ولكنه ظل رابط الجأش ، متملکا زمام نفسه ، وانفعل ضحكة
شعواء ، قائلا :

ماذا تقول يا أفندي ؟ ... أية ترقية ؟ ... وأى إسعاف ؟
ومد قدمه إلى الصبي يغمزه . ويقول :

قم يا ولد !

ولكن ، الفولى ، كان حريصا على الإذعان لنصائح الشاب .
فلم يبد في رقدته حراكا ... وكان وهو ممدود على أديم الأرض
تكسو وجهه الجراح ، وتعلو ثيابه الأحوال ، حريا أن يستثير
مشاعر العطف والإشفاق ...

فتعالت مهمة سخط وتغيظ بين جمهرة الناس ...

وقال أحدهم بوجه كلامه إلى المعلم

أليس في قلبك ذرة من رحمة ؟ ... إن الولد يجود بنفسه !
فصاح الأستاذ شافعى ، وقد انحنى على الصبي يتحسس :
الحالة خطيرة ... أخشى أن يكون قد أصيب بنزف
باطنى ... ألا أجد رحما يسعفنا ببعض المنعشات ؟ ...

فهرع جمع من الناس يحضرون الماء والحل ...

وأقبل ، الأستاذ شافعى ، على الصبي يدلسكه وينشفه ، ثم تركه
لبعض السابلة يتعهدونه ، وقصد إلى المعلم ، ووقف أمامه وجها لوجه
وقد عقد حاجبيه ، وخطف قلبه العتيد المتداعى ، من جيب سترته
الأعلى ، وجعل يلوح به قائلا :

ألا تعلم أنك عرضت نفسك لمسئولية جنائية صريحة ؟ ...
فغضب المعلم ، وقد تغضن جبينه :
مسئولية جنائية ...

— حقا ... إنها لمسئولية خطيرة ، تزج بصاحبها في محكمة
الجنايات ! ...

وهم المعلم أن يرفع الصوت مستنكرا ، فوجد الكلمات تنحني
في زوايا حلقه ، وكان ، الأستاذ شافعي ، يرقبه بالنظر الثاقب ،
فلمح شارب المعلم الضخم المتشامخ يتهدل ويتطامن .. فصاح على الأثر :
لا أقل من سبعين خمس سنين ... أو حسبته أنه لا حساب
ولا عقاب ؟ ...

وأخيرا استطاع المعلم أن يقول :
وحضرتك من تكون ؟ ...
— ألا تعرفي ؟ ...

— لم يسبق لي شرف التعرف ...
— أنا السكرتير الخاص لمنقابة الطب الشرعي ، وعضو اللجنة
العليا للإسعاف ...

فأجاب المعلم مختلج الأنفاس :
وسعادتك بماذا تأمر ؟

... لا شأن لي بالموضوع ... لا مصلحة لي قط ... على أن
أبلغ الأمر للسلطات المختصة ... هذا كل ما يجب أن أعمله ،
أما الإجراءات القضائية فإنها تأخذ مجراها ...
فد المعلم ، فتح الله ، يده إلى كنف ، الأستاذ شافعي ، وجعل
يربها في ترفق ، ثم اجتذبه من الزحمة ملطفا ، وهو يقول :
تعال معي إلى الخانوت نتحدث على مهل ...
وسار به إلى الخانوت ، وواصل قوله :
هذا الولد عندي كأحد أبنائي ، وقد ربيته ، وليس بعسير على
أن أعالجه ، وأن أنفق عليه حتى يذهب عنه ما به ...
ودخل كلاهما الخانوت ، فعمد المعلم إلى الباب بغلقه ، وشوهد
شبحاهما من خلال الواجهة الزجاجية ، وقد اتحيا ركنا قصيا ،
وانبريا بفتناقشان ويتحاوران ... ثم شوهدت الكتلة البشرية تدس
خفية في يد ، الأستاذ شافعي ، شيئا لم يكده يلبسه حتى خفت حدته
في المناقشة ، وانقطع عن اللجاج .
وخرجا من الخانوت يظللها الصفاء ...
وسمع الناس ، الأستاذ شافعي ، يخاطب المعلم بقوله :
سأتولى الأمر بنفسى ، ولكن كن حكيما في معاملة الغلام ،
ولا تدع غضبك يسيطر عليك ...

وأمر بإحضار مركبة من مركبات الخيل ، فلما حضرت حمل
إليها « الفولى » ، ووثب ، « الأستاذ شافعى » يتخذ مجلسه بجواره ،
ومضت بهما المركبة بين أخلاط الزحام ...
وما إن ابتعدت عن الحى ، حتى اعتدل « الفولى » فى جلسته ،
وتطلع إلى وجه منقذه يتسم ابتسامته البهائم ، فزجره « الأستاذ
شافعى » بنظرة حادة ، ثم استل من جيبه « الريال » العتيذ ، ودفع به
إلى « الفولى » قائلا له :
خذ نقودك ...

— واللفائف ؟ ...

— لا حاجة لى بها الآن ... حسبي ما أضعت من وقى فى
مشكلتك الأولى ، والآخرى ...
ترادفت على يوم هذا الحادث شهور ...

وظهر فى المنتديات وفى المجالس الكبيرة شابان تزينهما حلة
إفريقية ، أحدهما حديد البصريعى برباط رقبتة ذى العقدة الضخمة
ويصلحها بين حين وحين ، وتراه يتحسس تارة قلم الحبر الثمين ، ذا
الغطاء المذهب . وهو مطل من جيب سترته الأعلى ... وبحوار
هذا الشاب قى يافع يلزمه ملازمة الظل ، لا تدرى أ آدمى هو بحق
أم هو من ذلك النوع البدائى المنقرض من سلاسه الإنسان ،

ذلك الذى تخيله «دارون» حلقة الاتصال بين القرد والبشر؟ ...
فهو على الرغم من جدة حلته ، يبدو مختل الزى بسلا هندام :
حركات شاذة فى النهوض والسير والتلفت ، وإشارات طائشة يعثرها
فى غرارة ، وابتسامة ... عريضة بلهاء تبتلع وجهه الشميم ...
ولشد ما يبادره رفيقه بالتعنيف ، إذ يقول له :

قلت لك دع هذه الابتسامة ... لا تضحك على هذا النحو ...
متى تتعلم ؟ ...

فيطلع إليه الفتى على حاله ، لا يكاد يشعر بما قيل له ، ويجب
شاذج اللهجه :

وماذا تريد منى أن أفعل ؟ ..

— أريد أن تكون كخلق الله ...

— ألسنت من خلق الله ؟ ...

— إنك لحبوان

— طال عمرك ، وبقي أولادك ...

ويتفرج فه أكثر من ذى قبل ، وتتوضح له ضحكة ، كأنها
تناوبة بشعة فينظر إليه الشاب الاثيق نظر الاشمزاز ، وتعتلج
فى نفسه نزعة جامحة إلى صفعه ، ويلبى كفه تختلج ، ولكه لا يلبث

أن يرى نفسه وقد قذف في وجه الفتى ورقة مالية صغيرة ، وهو
يصبح صيحة الإمرة :

حل "موعد الطعام ، فأغرب عني ، وأرخني من طلعتك
بعض الوقت ...

فيتلقف الفتى ورقته مغتبط النفس ، ويقول :

لا حرمني الله فضلك وإحسانك ...

... لا تتأخر ... يجب أن ألقاك في الموعد ...

ثم يحسركه عن معصمه ، ويلقي بنظرة خاطفة على ساعته
الذهبية الوهاجة ، ويواصل قوله :

أمامك ساعة ... ستون دقيقة فقط ... أفاهم أنت ؟ ...

... فاهم بالسعادة ، البك ، ...

إن وقتي محسوب على ... القضايا يأخذ بعضها برقاب بعض ...
فخذاً أن تتخلف ...

... كان الله في العون ...

... إن الله تعالى لم يشأ أن يعيتني بمعرقى بك ... لقد زادت
متاعبي منذ سقطت على ... ولكن ماذا أنا صانع ؟ ... ألقى بك في
عرض الطريق ؟ ... لك رزق ... إنما نطعمكم لوجه الله ...
... عمر الله بيتك !

— اذهب لشأنك... وتذكر موعد اللقاء...

ويخرج « شبه الأدمى » يقفز في مرجح ، تراوده شهوات الطعام
والوان المآكل .

منذ يوم الحادثين التاريخيين : حادث السيارة وحادث « المعلم
فتح الله » ، تاحت للأستاذ شافعى ، فرصة تتجلى فيها مواهبه على
نحو جديد ...

فكر في شأن ذلك الصبي ، فرأى أنه إن اتخذته تلميذا يستخدمه
في مثل هذه الحالات أصاب منه رزقا حسنا ...

وكان « الأستاذ شافعى » فطنا حصيفا لا يتهور ، فهو لا يتقدم
خطوة إلا إذا مهد لقدمه موضعا ، فبدأ يصطنع الصبي على نحو
يؤمن معه الزلل والافتضاح ، واتخذ من حادثة « المعلم فتح الله » أساسا
للعمل ، فسمى في إلحاق والقبول ، بمحل آخر على نحو ما كان ، وأعاد
تمثيل الرواية بعد أن أنقن تجربتها ، وأبدع في إخراجها ، وزادها
فصولا إلى فصول ، فقد كان « الأستاذ شافعى » مجددا حقا في
أساليبه ، لا يركن إلى طريقة واحدة في الإلمام والتكرار ...

ولا يكاد ينفذ يده من حادثة ، حتى يمضى برأيه وصنيعته إلى
صيد جديد ...

صدقت الحكمة القائلة بأن الحظ إذا وات إنسانا ألفه ، فلم

يجدر به ، وإذا أخلف لم يكن له من عَوْد ، فالأقدار
التي أخذت بناصر « الأستاذ شافعي » ظلت تمنحه العطف
والتأييد ...

فقد وقعت يوما حادثة ما أجدرها أن تكون محور تحول في
خطة ذلك الشاب المخامر ؛ إذ أصيب « القرلي » فعلا بصدمة
سيارة كادت تتركه في ذمة المتون ... فما أسرع أن رفع « الأستاذ
شافعي » الأمر إلى القضاء ، فحكم له بتعويض أدته شركة التأمين
التي كانت تضمن حوادث هذه السيارة ... فقد ثبت أن الصدمة
تركت ما يسميه الطب الشرعي : « عاهة مستديمة » . ولم تكن في الواقع
عاهة يأبه لامثالها « القرلي » ونظراؤه من ذلك الضرب البشري ،
الذي هو عرضة للجسد والاحتمال ...

هنا افتتح لعين « الأستاذ شافعي » مجال تكن فيه الذخائر
والكنوز ، هذا المجال المبارك عنوانه :
« العاطفة المستديمة » .

وعلى كراياهم اتخذ الموضوع منحى عمليا لا يخلو من خطر ؛
إذ وجد « الأستاذ شافعي » نفسه أمام ميدان يتطلب الجهاد في
جد وإحكام ، ولم يكن هذا ليعيبه ...
وبذلك أصبح ذات يوم فآلني نفسه مروّضا حقا لهذا الحيوان

شبه الأدمى، مروضاً له على نهج مرسوم وخطه مقررة . لغاية واضحة
تمام الموضوع

كانت عاينه أن يتذرع باله . . والخيل وتكبد المشاق ، يصدق الرحمة
والحنان أحياناً حتى يبلغ الأمر مبلغ التدليل ، ويقسو تارة أشد
القساوة حتى يسوم ربيبه سوء العذاب . . . فهو صيدلى يتخذ من
الأدوية والسموم ما يلائم ملايسات الأحوال ، حتى يستطيع
بذلك أن يحبل هذا الحيوان شخصية ما هرة تجيد اللعب فى مخاط
الحياة ؛ كما يجيد البهلول قفزاته العالية ، يتطويع . . . ريسرة ، فى
حلقات الملاعب . . .

لقد غدا الأستاذ شافعى ، فى حياته الجديدة مبتكراً مخترعاً يحتبس
فى مكتبه ليرسم الخطط ، ويعد التجارب ، فإذا فرغ من رسمها
وإعدادها عمد إلى صنيعته يلقنه الدرس ، ويريده على ضروب من
التمرين ، ثم يجرّده معه كما يجرر الصياد شبكته ، ويرمى به فى
معمران الحياة وعباب الأحداث ، ثم يجذبه فإذا هو مملوء الوفاض
بالمقنم والخيرات . . .

أما الفولى ، فكان يسلم قياده لأستاذه ، لا يعصيه ولا يخالفه
فى أمر أو نهى . .
لقد وهب أستاذه كامل ثقته ، فلم تكن المخاطر تهزه أو تهوله ،

مادام أستاذه هو الذى يدفعه إليها دفعا ...
لا مريية أن السلامة مكفولة مهما ينله من إصابات ، فما كان
لأستاذه أن يريد به السوء ! ...

وأخذ « الأستاذ شافعى » ، ينقل فى البلاد مصطحبا صنيعة ،
لا يستقر له قرار فى بلد واحد . يرتاد المصايف والمشاتى . وحسبه أن
يزج بهيئته فى المزلق والمآزق . فلا تلبث المغاتم أن تنهى إليه باردة
طيبة لا تكلفه عتتا ... فعاش عيش الترفين المتعمين ، يلقي من
مائدته فتاتا لريبه الصبي ، فلتقطه عجورا تقر عيناه ! ...

واتسعت مناطق عمل الشاب ، وازدادت المشروعات بين يديه ،
فكان يؤثر منها أضخمها تبعة ، وأثقلها كلفة ...

وسارت الأمور على هذا النحو ، وتكاثرت فى جسد « الفولى »
ألوان « العاهات المستديمة » ، فأصبح كالشوب المرقع ، بقيت فيه
المزق ، ولعب بأصله العفاء ! ...

وأصبح « للفولى » اسم ذائع الصيت فى المشافى والمصححات يقضى
فيها من أيام عمره أكثر مما يقضيه خارجها ، من أيام السلامة والعافية ...
وكان ذلك مما يغريه بالمخاطر ويشجعه على اقتحامها ، فإن
عيش المشافى والمصححات أهأ وأبرأ ، وإن حياته فى تلك الدور
لهى حياة رقامية ومتاع ؛ إذ هو بين يدى المرضات يتعهدنه ،
(٧ — م)

ويلاطفه ، ويقدم من له أنظف الملابس ، وأطيب الطعام والشراب . .
وتعاقبت الأيام ، و « الفولى » مطمئن بحياته ، رافه البسال ،
يعيش فى قفص من عاهاته المستديرة ، كما تعيش القوقعة فى محبس
من صدفتها ، أو السلحفاة فى حصن من درعها الصخرية . . .
ولكن « الأستاذ شافعى » لم يعد يشارك الصبي هذه الطمأنينة ،
فقد سمع مرة من الجراح الذى تولى علاجه أن هذا الصبي لن
يعيش طويلا ، إذا تعرض لصدمة أخرى . فوق هذا النبأ على
« الأستاذ شافعى » وقوع الصاعقة ، وفكر فى الأمر مليا . واضطر
أن يخفف من وطأة المغامرات التى يورط فيها ربيبه ، وأحاطه
بموفور الرعاية . . .

وكان كلما خطر بباله أنه قد يفقد « الفولى » يوما ، شعر بصرح
آماله يتقوض ، وتأمل فى نفسه ، فلم يجد أنه قد ادخر مما كسب
شيئا لئلا هذا اليوم ، اليوم العصيب المنتظر . . . فقد كانت المائدة
الحضراء ، ومناضد الشراب ، وبجالس الغواني ، تتناهب كسبه ،
فلا تبقى ولا تدر . . .

هل من سبيل لإنقاذه من تلك الكارثة التى توشك أن تحيق
به ، فتسلبه إلى البوار ؟ . . .

كان مرة فى « السينما » فشاهد رواية إجرامية ، دارت

أحداثها حول استغلال التأمين على الحياة ، نقابه الموضوع ، وراقت
الفكرة ، ومضى يتساءل :

أما يجوز له أن يتخذ من موضوع التأمين سلما لإيقاظ مستقبله ؟
لسم لا ؟ ...

وجلس إلى مكتبه ، وقد علت سمته تلك المسحة الشريرة ،
وأحس من قرارة نفسه باعثا يجدوه على عمل فاصل وأمر محتوم ...
إنها الورقة الراجعة الكبرى ، أفلا يقامر بها ؟ .. إن حياته كلها
كانت اليوم ربما لا خسران معه ، فليجرب هذه المرة أيضا
مواتاة حظه ، وإنه لعل يقين أنه لن ينسرك له ...

عليه أن يضرب الضربة الحاسمة ، حتى تغنيه عن تلك
المغامرات الصغيرة التافهة التي هي غلالات عجاو .

في هذه اللحظة طالعته صورة « الفولي » ملقاة على مكتبه ، وهو
يتسم ابتسامة تكشف عن قسمااته الحيوانية ؛ كأنه يذكره بفضله
عليه ، فتأمل الصورة حينما بعين مغيظة ، وما غم أن قذف بها
بعيدا ، وراح يذرع الحجرة ذهابا وجيئة ...

« الفولي » ... من هو ؟ ... بل ما هو ؟ ... غر مأفون ،
وسيموت يوما ، ما من ذلك بد ، فإذا إن تقدم به الأجل ؟ ... كثير
غيره من كرام القوم وسراة الناس تجرى عليهم سنة الموت ، وهم

فقد يتق العمر، وفي الصبا النضر، ومع ذلك تسير الدنيا ولا تفتأ تسير...
« الفولى »... إنه ميت لا محالة... ولكن المهم من أمره
إذن أن يموت في الوقت المناسب على الوجه المناسب، فيضمن
لموته قيمة لا تضيع، وإنما تكون جزاء لولّى نعمته، الذى انتشلته
من الحضيض، ورفعه في مراتب الحياة درجات... .

تخرج الباب في هذه اللحظة عن « الفولى »، يخبّ في حُلته
الجديدة غير المهندسة، وهو يحى « الأستاذ شافعى » بتلك
الابتسامة المثيرة للأعصاب... .

فتدانى منه « الأستاذ شافعى » وربّت كتفه، وهو يقول :
سنخرج معا... أمأهأ أنت ؟...

— أنا طوع أمرك... إلى أين ؟

— سنمضى إلى بعض زيارات... زيارات هيئة... .

ثم أخرج من جيبه علبة لفائف، ورعى بها نحو « الفولى »، فى
ملاطحة ومعاينة، فلققها الصبى، وهو يترنح من طرب... .
مضيا... متجهين إلى إحدى شركات التأمين.

وانقضى أسبوعان، و « الأستاذ شافعى » يصطحب ربيبه
متقلّا به بين شركات التأمين، يعرضه عليها مستشيراً إليها فى
التأمين على حياته.

وكان يساوم ويفاضل ، ويستخير مختلف الجداول المزدحمة بالأرقام، حتى استقر قراره بعد لآي ، على اختيار إحدى الشركات السخبة في شروطها ، وبدأت بعد ذلك إجراءات الفحص الطبي ، فطرح «الفولي» بين يدي الأطباء يعلبونه كما يعلبون البضاعة المزجاة، متفحصين إياه في عناية واهتمام وحذر، واستعانوا في فحصهم بتحليل الدم وباتخاذ الصور لأوصال الجسم المختلفة ، والصبي في أثناء ذلك لا يحاول أن يفكر في اكتناه الغاية مما يرى وما يسمع . حسبه أن يحس الفجلة والانشراح والاعتزاز بذلك الجمع المحتشد ، من حوله ، يشمله باهتمام ملحوظ . . .

وبعد محاولات ومداورات حررت وثيقة التأمين ، فذهبها الأستاذ شافعي ، في جيبه في عناية واحتراس . . . وما إن ترك المكان حتى النفث إلى « الفولي » يقول له وعيناه تلتمعان التماعة الفوز والمرح :

أتعلم ماذا كان من أمرك الساعة ؟ . . .

— ماذا ؟

فوقف «الأستاذ شافعي» يتأمل به بعيني النسر الشره ، ثم قال :
إن حيائك التي لم تكن تساوى قشرة بصلية يا سيد «فولي» ، قد أصبحت منذ اللحظة تساوى آلافا من الجنهات . . .

فحلق «القول» مبتهجا، مهتاج الخاطر، ينشق فيه عن ابتسامته
الكريمة البهاء، وهمهم:

كيف ... كيف هذا ؟ ...

... ذلك هو الواقع ... لقد رفعتك من لا شيء إلى كل شيء،
لقد جعلت لحياتك قيمة غالية ... افهم أنك أصبحت الآن عظيما
جدا أيها الحيوان ... !

فتضاحك «القول» متزنج الأعطاف؛ وقال:

طال عمر ك؛ وبقى أولادك ...

هنا تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ صلة «القول» بأستاذه
الشافعي؛ مرحلة، يلعب فيها القدر لعبته الكبرى ...

لقد آمن «الأستاذ شافعي» على حياة «القول» بمبلغ ضخم،
وجعل نفسه وارثه الأوحد ...

لقد توضحت المسألة ...

إن الذي كان يخشى «الأستاذ شافعي» وقوعه قبل اليوم، أصبح
الساعة هو الذي يشتهي ويتعجله، ويرى فيه فردوس أحلامه ...
عليه الآن أن يعمل بجد ...

وسرعان ما شمر عن ساعد الاهتمام، واستأنف مراجعته
لمشروعاته، ينمقها ويحيد إخراجها، ويجعلها بما يحسبها أحد وأمضى ... !

وتأهب « الفولى » لخوض المغامرات بعد فترة الراحة والاستجمام... كانت الخطط السابقة تقسم بالحيلة والحذر ، ولكن الخطط الحاضرة ، يتجسم فيها التهور والتعرض للتهلكة... وشرع « الفولى » يدرك ببصيرته الحيوانية ، ببصيرته التى تنيرها غرائز الحرص على البقاء ، أن ثمة عنصرا جديدا قد اندس فى مغامرات اليوم... ولكن ماهو ؟...

ذلك ما لم يستطع التفطن إليه ، والكشف عنه... وأحس يوما فى إحدى المغامرات يد « الأستاذ شافعى » تدفعه دفعا ، تحت عجلات السيارة ، على حين أن الخطط فى سوالف المغامرات كانت تلزم « الأستاذ شافعى » أن يظل بعيدا عن الأنظار ، حتى تقع الواقعة...

وماهى إلا أن وجد « الفولى » نفسه فجأة يحجم ويتمنع ويتوقى ، فكان الإخفاق نصيب المغامرات المدبرة ، وتأصلت فى قلب « الفولى » مخاوف لم يكن يدرك تمام الإدراك ما تأها... فكان وهو على أهبة التقحم فى ميدان الخطر يشعر فى اللحظة الحاسمة بما يزين له التراجع والفرار ، فإذا هو قد جانب الميدان ، وأطلق ساقيه للريح... أثار هذا الإخفاق المتتابع غضب « الأستاذ شافعى » ، فكان

يعنف به يديه أفسى تعنيف ، ويحضه على الإقدام والتشجع ، ويسأله :
ماذا أصابه حتى فقد رباطة جأشه وخفة حركته ؟ ...

فلا يجيب ، القولى ، إلا بما ينطبع على وجهه من سهوم وحيرة
وارتياع ...

وكثيرا ما هم ، الأستاذ شافعى ، أن ينحى على ريبه بالضرب
الموجع ولكنه كان يراجع نفسه ، ولا يلبث أن يقبل عليه بلطفه
ويتملقه ، ويلابته بمعول الأمانى ... فكان ، القولى ، يحدق
فيه طويلا ، بعينه الكائيتين الكئيتين ؛ كأنه يريد أن يستكنة
هذا الملق ، وما ينطوى عليه من سر ...

وسرعان ما ينخرط فى بكاء وانتعاب ، وتستبد به الوحشة
والانقباض ؛ كأنه ناته يضرب فى يدهاء ماحله تعوى فيها الرياح ...
احتلت براجم ، الأستاذ شافعى ، كل الاختلال ، وخلا إلى
نفسه ، يتساءل فى أمر هذا الصبي المعتوه ، وما عراه من تغير حال ...
أى شيء أصاب الصبي ، حتى جعله يتخذ خطوة أخرى فى
مجاهدة الصعاب ، وملاقة المخاطر ؟ ...

لقد كان من قبل مدعنا لإرشاد أستاذه ، منجزا لمخططة فى
استسلام واطمئنان ، لا تقصير ولا عصيان ...
فما خطبه اليوم يحجم ، ولا يبدو طيعا كما كان ؟ ...

ماذا جرى ؟ ..

هل أحس أن نية سيده قد تغيرت نحوه . وأنه يآتمر به
نيملكه ؟ ...

لا ريب في أن الصبي هو هو . فقله هو عقله . وفطنته هي
فطنته . ليس بقادر على أن يستشف مجهولا . ولأن يستبطن شيئا
بما غاب ا ...

أئمة وسيلة أخرى [ذن غير العقل والفطنة تكشف عن البصائر ،
وتجلى السرائر . وتوضح بها النيات ؟ ...

أفي استطاع الغرائز — غير مستعينة بالعقل والإدراك —
أن تستشف من حقائق الحياة وغيوب التدابير ما قد تعيا به العقول
والفطن ؟ ...

كان «القبولي» مستسلما مطمئنا ، يوم كانت نيات أستاذه «الشافعي»
نحوه بيضاء ، لا تريد له هلاكا . بل تبغى حمايته والاحتفاظ به . .
ولكن الصبي اليوم ينقلب إلى الضد . فبتقيه ويحذره ويستريب
به . لا لسبب إلا أن «الأستاذ شافعي» في سريرة نفسه التي
لا يلها أحد . قد فكر في الخلاص من ربيبه . .

أرى «القبولي» بواعيته الخفية قد أحس ذلك الانقلاب فيما
يهدف إليه أستاذه من أغراض ؟ ...

عالج « الأستاذ شافعى » ريبه بمختلف الذرائع وأشتات
المغريات ، وإذ يضيق به ذرعا ، لا يجد بدا من أن يتقصده
بالضرب المبرح ، والإيذاء الأليم ! ...
فكان « الفولى » يحمل الأذى فى صبر وجلد ، لا يروءك منه
إلا كثرة ضارية تعلو فيه ؛ كما تكشر الذئاب المتأهية للاتهام ! ...
ولا يكاد « الأستاذ شافعى » يرى « الفولى » قد كشر عن
أسنانه على هذه الصورة البشعة ، حتى يتقهقر منه ، وقد أوجس
خيفة منه ...

واتهى الأمر بأن أعلن « الفولى » جهره لإخراجه عن تنفيذ أى
مشروع يراد عليه ، فأسقط فى يد أستاذه « الشافعى » ، وذهبت
محاولته كلها أدراج الرياح ... وتلبس « الفولى » بعناد ، كما يعاند
الحمار إذا حرن ، وتأبى أن يتزحزح عن موقفه ، مهما يكن من
أمره ...

ونشبت بين الصبي ومروضه عداوة مضطربة ، كان من العبث
إخضاعها وكان « الأستاذ شافعى » يكشف صبيه بالعداء
فى ضجة وعنف فأما الصبي فقد ظل منطويا على ضعفه الخفي ،
يجلس الساحات الطوال فى ركن من الحجرة وحيدا يحدق فى
الفضاء أمامه ، بعين تائهة حيرى ، وقد يفيق بغتة من غشيته على

أثر رجفة تنتظم أوصاله : إذ يترأى في مخيلته « الأستاذ شافعى »
وقد عاجله بضربة على أم رأسه ، تسقطه مضرجا بدمه ...

وكم من مرة جمعت بينهما حجرة واحدة ... « الأستاذ شافعى »
جالس إلى مكتبه ، وهو عابس يتنفخ ، والصبي متجمع في ركن
قصي يخالس أستاذه النظر ، فكما تلاقت عيونهما ألقي « الفولى »
نفسه يصر بأسنانه صريرا لا يخطئه السمع ، وقد انفرجت شفتاه ،
وتحفر اللذود عن نفسه وحياطتها من كل مكروه ...

تواصلت الأيام « والفولى » غريق في عناده وكآبته وصمته
وبدا « الأستاذ شافعى » يجد ريح الأزمة المقبلة ، فجئن جنونه ،
وأقبل على ذكاته يهزه ويعتصره ، ولكن عز الممين !

ومرة كان الغريمان على حالهما في حجرة المكتب ، وإذا
« الأستاذ شافعى » ينمض واجف الأوصال من الغضب ، مكفهر
الوجه من الغيظ ، وصاح « بالفولى » قائلا :

تعال هنا يا ولد ! ...

فرماه « الفولى » بنظرة نكراء ، ولم يبد من حراك ! ...

فردد « الأستاذ شافعى » صيحته :

تعال هنا يا ولد ! ... هل خرس ؟ ...

فأشاح « الفولى » برأسه يابى الاستجابة للأمر ، فخطا إليه
« الأستاذ شافعى » ، فما إن رآه « الفولى » مقبلا حتى نهض دفعة
واحدة ، فزأر « الأستاذ شافعى » قائلا :
لماذا لا تطيع أمرى ؟ ...

فهمهم « الفولى » فى صوت محتدم كظيم ، وقد علت وجهه
سحابة كدرة مفرعة :
هكذا فعلت ا ...

— وإنك لتتوقع فى القول ؟

— هكذا أنا ا ...

فغرت أوداج « الأستاذ شافعى » والنى يده تتعالى ، ثم تهبط
بصفعة عاصفة ، قاهتز لها كيان الصبي ، ولكنه لم يزل عن موقفه ،
وكل ما كان منه أنه انقلبت عيناه بقعنى دم قاهر ... وهمهم وهو
يصرّ بأسنانه صريرا يكاد يحطمها :

لا تضرب ا ...

فتحمس « الأستاذ شافعى » ، وصاح بجلجلا بصوته :

أضربك وأضرب شياطين أهلك ا ...

فتابع الصبي صرير أسنانه ، وجمجم .

قلت لك لا تضرب ا ...

— إنك خارج الآن معي ..

— كلا ...

— قلت لك إنك خارج ...

— لن أخرج ...

وارتفعت يده « الأستاذ شافعي » ، وما كادت تهبط بصفتها حتى التقت بيده متحجرة جبارة ، تمسك بها في قساوة وعنف ... وسرعان ما التحم الحصان وكانت معركة حامية الوطيس ، معركة تجرى على الفطرة ، كل خصم يحرص ، على أن ينال من خصمه جهد ما يستطيع ، بكل ما أوتي من قوة وشراسة ... فكانت الضربات تهاوى هنا وهناك ، وكان الخش والחדش يتناثران ، ذات اليمين وذات الشمال ...

وإن أحدهما ليقبض على خصلة شعر خصمه ، فلا ينزع يده إلا وقد اجتثها من أصولها ...

لقد توارت إنسانية الخصمين ، فلم يبق منهما إلا صورة الحيوانية الباغية الطاغية ، لا تعرف غير الضراوة والإتراس ... وجرت المعركة ، لا يسمع فيها إلا هدير الأنفاس ، والارتطام بالحوائط والأثاث ، ووقع اللبكات والضربات ... وتدانى الجسدان من الشفقة ، وسرعان ما اشتبك في عراك

على سورها ، ثم ألفيا نفسيهما بنقطة يسقطان متخبطين في الهواء ...
ولم تكذب صيحتهما تعلو ، حتى ذهب بها صوت سقطتهما
العنيفة من حلق ...

فارتدى الجسدان هامدين ...
وتجمع حولهما السابلة ، وبعد حين تهادى الشرطى ، والناس
حولهم يصفون له ما وقع في تضارب واختلال ...
في هذه اللحظة الهوجاء ، وقعت عين الشرطى على شيء أبيض
يطل من جيب « الأستاذ شافعى » ؛ وكأن هذا الشيء يحاول جهد
الإمكان أن يفسح له مساحة في عالم النور ، ليعلن وجوده
في وضوح ...

فاجتذبه الشرطى يتعرف ماهو ؟ ... فإذا هو غلاف كبير ،
مكتوب على جيبته بالخط العريض :
وثيقة التأمين على الحياة ...

ذات اللثام

سيدى :

لا ريب أنك تعجبين ، إذ أوجه إليك هذه الرسالة ، بعد أن
انقصر ما بيننا من أسباب التواصل الروحى ، منذ عشرات السنين..
لقد عارفنا في مؤتلف الشباب ، ولكنى الآن أسألك نفسى :
على أى نحو كان هذا التعارف ؟ ...
ثمة صلة سلفت بيننا ، ما أعجبها من صلة ... لست أدري فى يومى
هذا ، ماذا كان لونها على وجه التحقيق ؟ ..
كنا نعد نفسينا صديقين ، أوفى ما نكون تصافيا ومودة ، على
حين أننا ظللنا لا يرى أحدهما صاحبه فى عالم المنظور ، وإن تجلى كلالنا
على أخيه فى عالم الأطياف ، ودنيا الأرواح ...
وما أنسى أن هذا التواصل الروحى كان أسمى مكانة وأروع
مقاما من مألوف الصداقات بين الناس ...
تواصل اعتديتنا عاما وبعض عام ، ثم انطويت صفحته بعد ذلك
مدى هذه الأعوام الطوال ...
لنى حين أنبش ذلك الماضى السحيق ، أسألك نفسى فى حيرة وعجب :

أكان يبتنا حقا هذا التواصل الروحي ، أم أنه باطل من الوهم
والوسواس ؟ ...

ولكن أنى لوم كاذب ، وسواس باطل ، أن يتمخض عن
تلك الحقائق الناصعة التي وجهت حياتي وجهة معينة ؟ ...
آدمية أنت حقاً ، عشت في هذه الدنيا كما أنا أعيش ، أم كنت
خيالاً صاغه القدر لي مزحة ومطبة ؟ ...

اليقين الذي لا يخالطه ظن أن تراسلاً كان يبتنا ، إبان ذلك
التواصل الروحي ، فقد تناهت إلى رسائل منك ، أما رسائلي إليك
فكانت مقطعات شعرية ، أنظمتها وأنشرها في إحدى الصحف ؛
لتكون جواب رسائلك إلي ...

لم يكن من سبب مادي بيني وبينك إلا تلك الرسائل ، وإنه
لعزيز على أن أفقدها الآن ، فلا أجدها واحدة أبقتني تصاريث
الأيام . واحدة تؤكد ثقتي بأنك كنت شخصاً حقيقياً ، لا طيفاً
ولا عروس أحلام ...

شد ما بحثت عن هذه الرسائل ، فلم أعثر لها على أثر ، وقد
كانت في الأوس البعيد ذخر خزائني ، أحرص عليها حرص الشحيح
على تقيس المتاع ...

كانت قبلي التي أوجه نحوها وجهي ، أتملاها وأستمل منها

إلهامى ، بل كانت حافزى الذى يدفع بى 'قدما فى غمرة العيش
ومزدحم الحياة .

هأنذا اليوم أتنفس أنفاس شيخوخة هادئة رخية، لا يروغنى
شئ من جراح الشباب ، وثورة العواطف، فإذا دهانى الساعة حتى
خطرت أنت يبالى، وهيمنت على نفسى، وأصبحت لى شغلا شاغلا؟
كنت أقلب منذ قليل كتابا من كتبي القديمة ، فاسترعى انتباهى
وريقة لعبت بها يد البلى مدسوسة بين الصحف ، وفى تلك الوريقة
تبينت حروفا ناصلة ، واستطعت بعد لآى أن أقرأ بها آياتا من
شعرى العتيق ، تضمنت نفثة من الصدر ، وبثة من الجوى ...
هذه الآيات هى إحدى رسائل إليك ...

قرأت ما فى الوريقة ، فلم يمز قلبي لما حوت ...
إنه شعر من هذا العبث الذى تجرى به أقلام الشعائر ، ولعل لما
سودت الأوراق بمثل هذه الآيات العجاف ...
قصارى ما كان من وقع هذه الوريقة البالية فى نفسى أنها أثارت
سوالف أشجان ، ورواقد ذكريات ، فإذا أنا أمام عهد قديم
ينفض عنه الغبار، ويخلع الدثار، وتتجلى به تلك الفترة الشاذة من
أيامى ، وإذا أنت - يا سيدتى - تبدين قبالتى ، فأستشرف طيفك
بعد غيبة حقبة ترابط فيها عقود من السنين ...

إنك لتعودين اللحظة إلى ، وإخالك تبسمين ، وكأنى بك
تهمسين قائلة لى :

قد أكون طيقا ، وقد أكون وهما ، ولكن ما برح لى ، وجود
ثابت فى نفسك ، وأثر باق فى حياتك ، هيات أن يسبل الزمان
عليه ستر العفاء

حقا إنك لأثر لا يتطرق إليه الفناء ، وكيف يمضى وحياتى
الراهة فى وضعها القائم ليست إلا صوغ يمينك ، وتخلق إرادتك .
وما يسوغ لى أن أكون المنكر الجحود

قد تكونين اليوم فى ربة الحياة ، وقد تكونين فى ذمة المنون ،
وقد تكونين فكرة من نسج الوهم والخيال ولكن هذا لا يردنى
عن أن أخط تلك الرسالة ، أعبر فيها عن بعض ما هو كامن راسب
فى وليجة نفسى .

أعترف الساعة بأن تلك العاطفة السالفة لم تكن إلا ضربا من
الحب القاهر . . . وعلى الرغم من فورة عاطفتى يومئذ ، فإنى لم
أكشفك بدقائق شأنى ، فكل ما ناجيتك به مقطعات شعرية جياشة
ملتهبة شديدة الإغراق فى الخيال

والآن ، بعد انقضاء ذلك الزمن المديد ، أراى شيئا إلى أن أنضى
إليك بذات نفسى ، وأصارحك بما لم يجرىه القلم يومذاك من أمرى .

لقد حان أن أطلعك على طوايا حياتي ؛ فذلك هو أنسب
الأوقات للكاشفة والإفصاح ...
لم أكن أفض إليك بهذه الحقائق ، إبان تواصلنا بذلك البريد
العجيب ؟ ...

لم لبثت أكنمها تلك الأعوام ولم أفكر في الإفضاء بها إلا اليوم ؟
أما كان خليقا بي أن أباديك بكل شيء في فترة التواصل ،
الشباب جديد ؟ ...

ثمّة قوة خفية كانت تسيطر عليّ ، وتصرف أمري ، ولا تدعني
أقطع من دونها رأيا ...

ماذا كان يحدث ، لو كنت أفضيت إليك بكل شيء عندي ؟ ...
ماذا كان يحدث ، لو كنت رأيتك ، وتم لي لقاءك ؟ ...
أكانت الأمور تجري في أعنتها التي جرت فيها ، وتسلم إلى
ما أسلمت إليه من مصائر ؟

لقد كانت معرفتي إياك على ذلك الوجه ، مفصلا في حياتي
بين عهدين :

ماضٍ بغيبض ...

ومستقبل بهيج ...

رسالتي إليك الساعة عرفان بجميلك ، وإقرار بما كان لتعارفنا

من فضل في نقلتي من ضيقة وظلمة وإفقار ، إلى ميسرة ونضارة ورؤاها
حقا إن الإنسان أعجوبة الدهر ...

إنه يختزن بين جنبيه قوى عجيبة تزخر بها نفسه ، وإن
تيرة النفس من هذه القوى لتظل محجوبة مستورة ، قد لا يدري
صاحبها من أمرها أى شيء ...

واعجابه لا مرمى. يتلمس خارج نفسه السبيل إلى تحقيق رغبته
في السعادة والهناء ...

ألا إنه لو أنصف لعدل يبصره إلى أغوار نفسه يسبرها ؛ ليكشف
فيها عن تلك الكنوز ، يملأ منها وطابه ما وسعه أن يملأ ...
تلك الكنوز من النشاط والفورة وأسباب الرغادة والإسعاد ...
تلك الكنوز من الآمال والمطامح التي تنوّهج جذوتها ، فتشيع في
أقطار النفس الحرارة والحياة والانبعاث ...

ولكن المعضلة المستعصية هي : كيف يستدنى المرء إلى
مفتاح تلك الكنوز ؟ وكيف يتعرف مكانها من قرارة نفسه ؟
في أساطير الأولين حديث عن امرأة سحرية إذا وفق إليها
امرؤ نسى له أن يستبين على صفحتها خبايا ما تشره إليه نفسه من
أوطار ورغاب ، فلا يلبث أن يسلك الطريق إليها على هدى ونور ...
ولقد تاح لي أن أجد هذه المرأة السحرية التي دلتني على ذلك

المفتاح المنشود ، وهدتني السبيل إلى مكان الكنز السكين ...
كنت أنت مرآتي السحرية ...

بك تجلي لي جوهر نفسي ، وتفتحت الغشاوة عن بصيرتي ،
وانزاح لي القناع عن سر الحياة ...
لقتك وأنا في حالة من الإفقار والبأساء ، تدفّ حوالى أجنحة
البأس . فإذا أنت تخرجيني من حال إلى حال ، وتهديني في الحياة
صراطا سويا ، كأني منه في روضة غناء

يومئذ كنت قريب عهد بفقد أبي ، عائلتي الذي لا عوض لي
منه ، بل كل ما كان لي من ذوى القربى ... ولم أكن قد استكملت
دراستي بعد ... وما كانت سني تزيد على الثامنة عشرة ... فوجدتني
بين عشية وضحاها وحيدا منقطعا ، لا عون لي على الحياة إلا ميراثي
من معاش أبي ، وهو مبلغ ضئيل لا يسد فاقة ، ولا يكاد يفي من
جوع . فاضطرت أتخلف عن الدرس ، وأن أقنع بفرقة في
سطح منزل في زقاق ...

وتطلعت نفسي إلى عمل أتقوت به ، ولكن ما كان أشق على
أن أبلغ في هذا السبيل مأربا ، فإني نسّيت تنشئة دلال واتكال ،
فلما صرت فردا في معترك الحياة أحسست الخجل والتهيب ، وقر
في ذهني أني لا أجد عملا ولا أصبر على جهد ، وقد زاولت شكولا

من الأعمال ، فكان نصيبي الإخفاق الوشيك ، واعتقدت أنى لست
إلا آلة علاها الصدا قبل أوانه ، فأكل منها حتى تعطلت ... وساورتني
فكرة الانتحار ، ولكن من أين لواهن النفس ، خوآر العزم ، أن
يمارس هذا العمل المتهور الجسور ...

وقبعت في غرقى ، مستخذياً متخاذلاً ، لأرهم مكافئ ، وأصبحت
كأنما أنا حيوان نفور لا يأنس بشيء ، حتى ليضيق بالنور
وبلغ بي الشظف أشد مبلغ ، واضطربت بي الحال أسوأ مضطرب :
شعر أشمت أغبر ، وكساء كخلق رث ، ومطعم تافه غث ، ونوم
قلق ، ويقظة حاملة ...

وكان لى فى عهد الدراسة ميل إلى الأدب ، وولع بالشعر ،
فلم أجد متفئساً فى وحدتى الجافية الجوفاء إلا أن أطالع بعض
ما عندى من دواوين الشعراء ، ووجدتني مغرى بالشعر الصوفى ،
والغزل العذرى ، فأقبلت عليه أتخذه لى متاعاً وسلوى . وكنت
أرانى بعد أن أرتوى من المطالعة : كأنما قد خنئت لى أجنحة إلى
آفاق علوية ، وهامت لى فى أودية الأحلام ...

وترادفت على أيام تطالغنى بهذه الحياة العجيبة التى لذت لى ،
فجريت فى عنائها طلقاً جموحاً ...

ويوما ، وأنا فى غمرة هذه المطالعات لأشعار المتصوفة

والعذريين ، وقع لي حادث طارىء ، لا أدري أكان وقوعه في
أحلام اليقظة أم في رؤى المنام ؟ ...

لقد تراءى لي وجه نسوى فاتن ، وإنى لأصفه بالفتنة على حين
أنى أتبين من قسباته شيئا ...

لمح لي هذا المحيا خلف خمار ليس بالشفيق ولا بالكثيف فسكنت
أحس فنته ، كما يحس المرء حرارة الشمس خلف الغمام .

لبث هذا المحيا قبالي فترة قصيرة ، شعرت أثناءها بقوة سحرية
تجذبني إليه ، وتصلني به ، وماعثم المحيا أن توارى عني ...

ولو جاز لي أن أعتقد أن ذلك كان رؤيا ، لسكانت هذه الرؤيا
ضربا فريدا لا عهد لي بمثله من قبل ، فإنها أودعت قلبي أثرا ملا
على أفطار نفسي جميعا ، وشغل وقتي كله !

وانصرم يومان قضيتهما كما أقضى سواف أيامي : محتبسا في
وكرى ، أطلع تارة وأتأمل تارة أخرى ، لا يتقطع تفكيري لحظة
عن ذلك الطيف العجيب ، وتلك الرؤيا الغامضة ، أحاول عبثا
أن أكتنه السر في حيرة واضطراب .

وفي أمسية يومى الثالث ، تبلى لعيني ذلك المحيا الصبح ،
على حاله التى رأيته فيها أول مرة ، بيد أنه الساعة اسطع
نورا وبهاء ... وأحسست كأنه يناحيني ...

لم تختلج له شفة ، ولم يند عن فمه صوت . ولكن مناجاته
كانت جليلة وضاحية ترسل إلى أعماق نفسى ...

لقد تأدت إلى تلك التجوى معانى صافية ، وإن لم تتخذ لها
أوضاعا من كلمات وحروف ...

ما شأن الحروف والكلمات بحديث النفوس ونجواها ؟ ...
إن تلك الرموز من ألفاظ ومصطلحات ميدانها العقل وحده ،
فأما النفس فإنها فى غنية عن ذلك ، بما لها من قدرة على تفهم
العواطف ، والتقاط المشاعر واكتناه السرائر ...

لم تكن الحروف والكلمات إلا وسائل وقوالب لإبلاغ المعانى
والصور ، فليت شعرى ما حاجة المرء إلى هذه الوسائل والذرائع ،
إذا أوتيت النفس قوة الإبداع والتراسل فى صمت وسكون ؟ ...
وأيهما أصدق فى الإبداع والتعبير ؟ ... أن يتم التواصل
بأساليب من الترجمة يتعاورها الإخلال والنقص والقصور ، أو أن
يكون التواصل مباشرا تتجلى به نفس على نفس ، وتمتزج به روح
برُوح ؟ ...

أليس كلما استنارت البصائر ، وصفا جوهر النفوس ،
وترفعت الأرواح عن مظاهر الحياة المألوفة ، كان التواصل أروع
وأسمى ، والتفاهم أدق وأوفى ؟ ..

لم أكد أخاص من نشوتي بهذه الزورة الثانية ، حتى شعرت
بإشراق في وجداني ؛ وألفيتني كأتى ألم شعبي ؛ وأتجه وجهة
معينة ، وأتخذ لي غاية مرسومة ، وإذا بي أخط على القرطاس
بأكورة شعري ...

كانت هذه الآيات تحية لذلك الطيف ، جعلت عنوانها :
« إلى ذات اللثام ... »

وما إن أتممت نظمها ، حتى رحلت أتقني بها ، مستعيدا متطربا ،
يملكني زهو وإعجاب ...

وعزّ عليّ أن أستأثر بهذا الإعجاب لنفسي ، ورأيت أن من
حق الناس أن يشركوني فيه .

إن الكثر إذا ضن به صاحبه على أعين الناس ، أضحي لاشأن
له ولا خطر ... قيمة الكثر في معرفة الناس إياه ، وانتفاعهم به ...
ولكن أي ناس أولئك الذين يعني أن يشركوني المتعة
بهذا الشعر الذي أودعته قبسة من الروح ؟ ...

ليس يعني أن يطلع أحد على هذه الآيات ، قدر ما يعني
أن تقرأها هي ...

هي ...

من تكون ؟ ...

لطيف يزورني في هدأة من الليل ...
أيكون لهذا الطيف وجود في عالم الأحياء ؟ ...
وشردت في الأفكار كل مشرد ، وعرائي ارتباب في شأني ؛
أصبح أنا سليم الفكر ؟ ... أم أسير هواجس ووساوس تدعني
ثأما أصابني مس ؟ ...

على أني خلصت من هذا الاضطراب كله برأى حاسم ، لا
متدح عنه ، هو أن أنشر القصيدة في إحدى الصحف السيارة ؛
لتطلع عليها ذات اللثام ...

وهرعت من فوري أترك الدار ، فقصدت أستاذي في العربية
إبان عهد الدراسة ، وكان قد انقطع عن التعليم ، وأقبل على
الصحافة ، فأنشأ له مجلة ، فرجوته أن ينشر لي تلك الأبيات ،
وظفقت أنشده إياها في حية واندفاع . فتناول الورقة مني ،
وسكن من روعي ، ووعدني بنشر الأبيات في مجلته « النجم » .
وصدقني الأستاذ وعده ؛ فقد اكتحلت عيني برأى الأبيات
في المجلة بعد قليل ، فعجلت بنسخة من المجلة إلى البيت ، وانفردت
بها في غرفتي ، وانطلقت أقرأ القصيدة جهر الصوت ، كأنني ألقها
بين يدي « ذات اللثام » ...

ووجدتني أتهالك على مقعدى أقلب الفكر : أتقع عينا على

المجمله فتقرأ الآيات ؟ ماذا يكون وقعها من نفسها ؟ ...
وانتظمتنى سنة من نوم ، وسرعان ما طالعنى المحيا الصبيح
خلف لثامه ، وهو على حاله من التخفى ، لا أتبين من قسماته شيئا ،
ولكنه كان بامر السنا ... وشعرت أن ابتسامه ترف على شفتيه ،
وكأنه يعرب لى عن غبطة ورضا ...
قضيت يومين وأنا فى شبه حمى ، وفى صبيحة اليوم الثالث
وقع بصرى — أول ما وقع — على رسالة ، قذفت لى من عقب
الباب ... إلى هذه الرسالة حقا ؟ ... وعن ولىس لى بأحد
صلة ؟ ... من فى الدنيا يأبه لوجودى ؟ ... ومن فى الدنيا
يعرف لى مكان وجود ؟ ...
ثمّة شخص واحد ، كائن مستور ، هو الذى يتصل بى ،
ويعنى بأمرى ...
ورحت أقلب الرسالة بين يدي ، ثم اثنتى أفض غلافها مرعش
البنان ...
ما كذبنى ظنى ...
وقرات :
« سيدى
هزرت نياط قلبى برائع قصيدك ، فى كل لفظة من أياتك

حلجة من خليجات النفس ، تضطرم وتوهج ، وما هذه القصيدة
إلا لحن شائق يسمو بالمشاعر في علوى الآفاق ... وإني لأقرأها
وأقرأها ، فكلمها بلجبي التكرار تجتلي معان مشرقة ، مختلف
ألوانها : كما تنضوا الجوهرة تحت الشعاع مختلفة الألوان . تلك
كلمات أخطأ إليك ، ما أغناك عنها ، ولكنني لم أستطع كتمانها ،
فأنا أبلغها إليك على استحياء ، مشفوعة بتحايا الإعجاب والإعزاز
ذات اللثام ..

رفعت عيني عن الرسالة ، محذقا في عرض الغرقة ...

لقد وقعت المعجزة ١ ...

ليست الحياة عقبا لا تتمنح عن معجزات ...

لا مستحيل في الوجود ...

ما قد نظنه عصيا أو ممتنعا أو محالا ، يمكن أن يوجد ميسورا

إذا لامته ملابساته ، وواناه إبتانه ١ ...

طال ترددي النظر في الرسالة ، أقرأها مبدئا ومعيدا ، وأجهر

بقراءتها مرة ، وأخافت بها أخرى ...

وتسربت في شعاب نفسي غبطة وراحة : كأني كنت في سفينة

تعابثها غوارب الموج ، وتلعب بها نكباء الرياح ، ثم أسلني سعد

الحظ إلى شاطئ سلامة وأمان ...

قلت لنفسي :

واقالك اليوم يا نفس من يراك ، ومن يقاسمك شعورك وهراك ،
فطبيبي ثم طبي ، وتملي بهجة الحياة ...

وخرجت من فوري إلى إحدى الرياض ، وقضيت وقتي
أتطلع حولي في مراح ، ووجدتني أنظم أبياتا أخرى ، جعلتها
جواب الرسالة ، وأودعتها عاطفة جياشة وشكرا على حسن الصنيع ...
ومضيت بالقصيدة إلى أستاذي ، فتقبلها بقبول حسن ،
واستبقاني عنده غير قليل من الوقت ، يسألني ما شأني ، ويتعرف
خبري . ثم ألقته يعرض علي في لهجة أب حبيب أن أعمل في
مجلته ، لقاء مكافأة معينة . فما كان أسرع استجابتي ...

واضطلعت من فوري بما أسند إلى من عمل ، وقد أفضمت
نفسي حيوية وحمية ... واستمر عملي في المجلة ، يزداد نشاطي يوما
بعد يوم ، ويقوى حرصي على أن أبلغ رضا أستاذي الذي أعاني
لذلك العمل الكريم ...

ولا حظت أني أنام نوما لا يعكر صفوه معكر ، وأخذت أعني
بخاصة شأني ، وأحسست بأنني أقبل على الطعام في شهية ، وأتألق
شيئا في ملبسي وزيتني ؛ وكما سرت في الطريق تمثل لي وجه
يقيبني من وراء حجاب ...

توايت بنفسى الإشراف على نشر القصيدة الثانية ، فابتهجت
بظهورها فى المجلة ابتهاجى بأختها من قبل ، وقضيت فترة من وقى
مبتهاجا أفكر فى شىء ذى بال ...

ومضى يومان يزداد بى الاضطراب ، أترقب شيئاً يحدث ،
وأخشى أن يطول ترقى ...

استبد بى القلق . فسهرت ليلتى الثالثة نافر الجفن ، ثار
الأعصاب . وتهيبت الانهزام ، وأحسست أن قصور الأمانى
تترنخ تحت العواطف الثقال ...

وظللت ساهدا حتى ساعة السحر ، ثم انكفأت على مرقدى ،
فتملكنى نوم لم أصح منه إلا قبيل الظهر . فما إن استيقظت حتى
وجدتنى أدلى بنظرأتى إلى عقب الباب ، فلمحت الرسالة ، وسرعان
ما قفزت إليها قفزة الصديان ، حرقة الظمأ ، فى هجير فلاة ، فإذا
ينبوع ينبجس منه ماء نير !

كانت الرسالة تحية رقيقة من صاحبتى « ذات اللثام » ... تحية
عاطفية ختمتها بقولها :

« ما أعجبه قدراً ذلك الذى جمع بيننا ، وهياً لنا فرصة اللقيا
فى طريق الحياة على هذا النحو ... وهانحن أولاء . نلتقى دون أن
يرى أحدهنا صاحبه ، ولكن أى جدوى لرأى العين ؟ ألا تحس

أنا تراءى وتناجى على وضع أصدق وأعق من وقوع بصر على
بصر ، ومن حديث فم إلى فم ؟ ... ثق أنى لك صديقة وفية ،
يملاً إعجابى بك أقطار نفسى جميعاً ... ،

طويت الرسالة ، وأنا أفهم :

أصديقة هى فقط ؟ ... إنها لتعلو على مراتب الصداقة
والآلفة ، وما فى معجائنا من كلمات دنيوية تقاس بها
الاعتبارات ...

ليس ثمة من كلمة تكشف معنى تلك الصلة الرفيعة التى تربط
بينى وبينها ! ...

سيدتى :

إلى لا عرض لك اليوم فى كتابى هذا تلك المشاهد السحيقة
من ماضى "القصى" ... فأذن لى أن أسألك الساعة :

ماذا كان موقفك أنت من تلك الأحداث ؟ ...

أذكرين تلك الشؤيعات ، التى كنت أشاركك فيها الحياة

والنجوى ؟ ...

أذكرين زوراتك لى ، أو بالحرى : إلام طيفك بى ، أو على
وجه أصح : تخايل وجهك خلف اللثام ، يبعث إلى من ومض
عينك منا يضىء لى ظلماء الحياة ، ويوقظ أوصالى بما يستبد

بها من مبات وخمول ؟ ...

لقد سايرتني شو ظا ليس بالقصير ؛ فهل كنتِ على يَنَنَةٍ بما كان
يفتأبني من تأثر وتطور وانسياق ؟ ... وهل ظلمت على مراقبة من
خطأى في هذه السبيل ؟ ...

وذلك التراخي الذي جد فيما كان بيني وبينك من علاقة ، وهذا
الاقتراق الذي كان من أثره أن انقطع ما كان بيني وبينك من تراسل ،
هل توضح لك من أسباب هذا وذلك شيء ؟ ...
أما أنا فما أجهلتى بتلك الأسباب ، وما أعجزني عن إدراك
كنهها ! ...

لقد ترامي عنى ذلك العهد ، فلم أعد أذكر دقائق تلك المغامرة
الحافلة التي كنت أنت دعامها المتين ! ...
أنسى ولا أنسى معالم بارزة الأثر في تلك المغامرة ... ومن أين
لي نسيان أني أحيتك يا سيدتي ؟ ...
لزام أن أسوق إليك هذا الاعتراف اليوم ، في غير مسطرة
ولا جمود ...

لقد أحيتك حبا غريبا ، تشعب في أنحاء الضلوع ، فكنت
مشوقا مائة الشوق إلى أن أراك ، أقصد أن أرى وجهك المتخفي
خلف لثامه ...

ولكن أى حب هذا ؟ ...

أطيف أحبه ؟ ...

أخيل أتعشقه ؟ ...

أحلم أوله به ؟ ...

لأكن لآلى بالآ إلى شىء من هذا كله ، فأنا فى شغل بما
ينتظمنى من غبطة وإشراح . وكان بما يزيدنى اغتباطا وازدهاء أنى
أحس مبادلتك إياى هذا الشعور ، وإن لم تصارحينى به جهره ! ...
إنه لمن العجب العجائب يا سيدتى ، أنا كلينا بقينا لا يظفر أحدهما
بأكثر من ذلك التواصل الروحى ، ولا يسعى فى دنيا الحقائق إلى
تعارف وتلاق ! ...

فنع كلانا بذلك البريد الذى لم يكن يتعدى المناجاة ، وبذلك
اللقاء الذى لم يكن إلا نجلى طيف ! ...

ولا أكنم عنك ما همس بخاطرى ذات يوم ، إذ رحت
أسائل نفسى :

لم لا أطلب لقاءك ؟ ...

لم أحرم نفسى رؤية من أحب ، سافرة قد انحصر عن عيائها
اللثام ؟ .

لم لا أراك كما أنت ، فأعرف شارتك ، وأبين قسبانك ؟ ..

لم يزل أراك حقيقة ماثلة تنبض بالحياة ، لا خيالاً مغلفاً وراء
سُتار ؟ ...

وما كادت هذه الخواطر تمنلج في رأسي ، حتى أحسست
انفجاسة خشية وتهيب ، لا أعرف لها مآتي !
ممّ خوفي ؟ ...

وفيم خشيتي ؟ ...
وبنيت عزمي على ألا آذن لهذه الخواطر في أن تساورني
كرة أخرى ...

حسبي هذا التوفيق ، الذي أتقياً متعته ، ولا تخنّب ذلك المجهول
الذي لا أدري ماذا يخبؤه لي من طواريء الشكوك والرّيسب ...
سيدتي :

إني باسط لك الآن ، من أحداث حياتي ، أطرافاً شتى ، وسواء
عليّ أكنت بها عليمّة ، أم كنت لا علم لك بها من قبل ؟ . .
هي قوة تستفزني أن أكشف لك عن طوايا تلك الحقبة
العجيبة من ماضيّ ...

منذ زاولت عملي في مجلة "النجم" ودرّ على "الرزق" والكسب ،
شرعت أحيا حياة غير التي كنت أحياها ، واستطعت أن ألمّ من
شعبي ، وأرتب عيشي . فأصبحت في زيتوني مأكلي ومشربي ،

على نحو جديد ...

وجدير بمن يحب حسناء رفيعة الشأن ، أن يكون ذا روثق

ورؤاء

ووجدتني أحفل بالزهر أنتقيه ، وأعد له الأصص ... وكنت

كلما وقفت أجتلي الزهر تفتح أكمامه ، أراني بك موصول الفكر .

ودام تواصلنا على ذلك الوضع المعروف : قصائد أنشرها في

المجلة ، وردود منك تصل إلى في البريد ، وهاتيك الزورات اللطاف

يوافيني بها طيفك بين آن وآن ...

وترادفت الأيام ، وأنا في بحبوحة هذه السعادة ، وازداد في العمل

نشاطي ، ورأى أستاذي أن يكلل إلى في المجلة جساما من المهمات ،

فاضطلعت بها على خير وجه

وزيدا جرى ، وانتقلت إلى مسكن آخر أرقى وأكمل معدات ...

وكانت فيه شرفة لم تلبث أن حليت بالرياحين ، حتى غدت روضة

صغيرة ، تضيء رؤياها . فكنت ألتخذ مجلسي عندها ، أنشد شعري

محيا قننتك ونضرتك التي تمثلها نظرة هذه الأزاهير .

وعلى مر الأيام . تكاثرت عملي في المجلة . وتشبك . ووجدتني

أخيرا مسئولاً عن شئون الإدارة مشرفاً على تدبير المطبعة التي

اشتراها أستاذي . ليطلع فيها مجلته ، وليجعل منها مورداً لكسب

جديد ، فاستغرق العمل في المطبعة أكثر وقتي ، إذ أنهالت علينا
المجلات والكتب والأوراق التجارية ، حتى صار طبع مجلة أستاذي
جزءا قليلا ، بالقياس إلى غيرها من المطبوعات ا ...

واستشعرت لذة في متابعة العمل وإحكاكه ، وبذلت قصارى
الجدد في خدمة أستاذي ، حتى غدت ساعده الأيمن ، ومضيت
فيما بين يدي ، أستمريء النجاح والكسب ، فجددت من وسائل
عيشي ، وبذلت من نظام حياتي ...

وتعاقبت الأيام شهورا ، وأنا في لجة العمل ...

فهل ظل تواصلنا على ما كان عليه ؟ ...

حقيق بي أن أعترف لك بأن ذلك التواصل قد اعتراه
تطور ... لم يتبدل جوهر العاطفة التي أكنها لك ، ولكنها اتخذت
مظهرا جديدا قوامه الهدوء والاعتدال ا ...

كنا نراسل ، ولكن في بترات ليست بذات قرب ، كما كان
الامر من قبل ا ...

وأصارحك بأنى أجلت مناجاتك بقصيدي مرة بعد مرة ، مدفوعا
إلى ذلك بزحمة العمل ومواصلة المجهود ا ...

ثمة تحول لا ريب فيه ، اعتري ما بيننا من صالة وعاطفة ا ...
لم يعد قصيدي يقتبس تلك الألفاظ المضرة . ولم تعد رسائلك تحلق

في تلك المطارح القصوى من آفاق الخيال . . .

كانت عاطفتنا تنجس رزية الخطأ إلى العقل والمنطق ، ومن
عجب أن تجرى كلانا هذا المجرى دون أن ينكر على صاحبه شيئا
من أمره ؛ كما هو تحول طبيعي ، لا يحصى عنه لنا
كليننا . . .

وحدث أن ماوم بعض الناس أستاذي في مجلته ، فابتاعها
منه ، وأصبحت صوتا لحزب سياسي ، فاضطرتني ذلك أن أنخل
عنها . . . وتباعدت الفترات بين تراسلنا معا ، وتسارعت بنا
الخطأ نحو العقل والمطلق والاتزان . . .

والقيتني في المطبعة أنهض بكل شيء . . . وأجزل أستاذي لي
الاجر ، ووثق بي أعظم الوثوق ، وقويت تبعاني في العمل ؛
فقدرتها خير تقدير ، وتلمب نشاطي ، وازداد دخلي ، وارتفعت
بي الحال درجات فوق درجات . . .

وكنت ما زلت ممتيا في شقة مسكني بتلك الأصص المزهرة ،
ولكنني لا أنكر أن كثيرا ما أعجلتني مواعيد الأعمال في المطبعة ،
عن سقيا هذه الروضة الصغيرة وتعهدها ، وكثيرا ما ألحيت عن
الاستمتاع بتلك الجلسات التي كنت أقضيها في صحبة الأزامير . . .
فسرعان ما أخذت تضمحل ويدب إليها الذبول والتصويج . . .

ولم أكن قد بارحت « القاهرة » خلال تلك المدة التي سلخت
فيها أيامين اثنين ...

« بميت ربح الصيف ، وشدة أستاذى رحاله إلى « رأس البر » مع
أسرته ؛ إذ استأجر عشا يمضى فيه شهرا وبعض شهر ...
ومعذت أنا في « القاهرة » ، يستأثر بي العمل ...

وبوما تلقيت دعوة من أستاذى أن أوافيه في « رأس البر » ،
أقضى هنالك معه بضعة أيام للترويح والاستجمام ... فابتهجت بهذه
الدعوة ، وسارعت إلى تلييتها ، وما هي إلا أن حزمت الحقيبة ،
وحشت الخطو ، وحلت مثابة أستاذى في ذلك المصيف ...

وبدأت أستمري حياة طيبة ، في صحبة تلك الأسرة الكريمة
التي تتألف من أستاذى وزوجه وابنتهما ، في زهرة العمر ...
ومر أسبوعان ، وأنا هانيء بتلك الصحبة ، قلما نفترق ، نتحلق
حول مائدة الطعام ، ونخرج رفقة للنزهة على الشاطئ ، ونسمر
جميعا هزيعا من الليل ...

وكنيت أحسن في معاملة هذه الأسرة لي روحا من العطف
والحنو ؛ كآنى ابن بار لهذين الأبوين الشفيقين ، وأخ عطوف
لتلك الأخت المهذبة الشمائل ...

وظللت أعد نفسي ذلك الأخ العطوف لها ، أرفعها رعاية

الإخاء المحض، ولكن عاطفة الأخوة لم تلبث أن نمت وترعرعت،
حتى تبدلت خلقاً آخر ...

كان أول لقاء بيننا يوم هبطت العرش لقاء تمجيد وإكبار، ثم
استحال اللقاء بيننا تعاطفاً وألفة، ثم تسامى ذلك التعاطف وتلك
الألفة إلى شعور أرق وأرهف ...

وطالما أطلق لنا الأبوان السبيل، ننعم بمجسّات خالية صافية ...
أفكان ذلك منهما وليد عمد وقصد؟ ... أم الملابسات هي التي
هيأت لنا تلك الخلوات؟ ...

وعلى أية حال، فقد خلوت إليها، وخلت إلى . وتعرفت
فيها سماعة نفس، ودماثة طبع، وتقهاء روح، إلى خفر وحياة
أصيلين ...

وكان انظراتها إلىّ تعبير صامت عميق الأثر، فكثيراً ما
أشعرتني أنها معنية بي، آتية إلىّ ...

ومن العجيب أنني حين كنت أنفرد في مضجعي، ويُرْتَق في
عيني الوسن، ألمح طيفك - ياسيدي - يترامى لي وأنت على حالك دائماً
يحجبك اللثام، ولكن هذا اللثام كانت ترق غلالته فيشف عما
تحت من ملامح وقسمات ...

وما أعجب ما كنت أرى ...

كنت أشهد في وجهك سمات من تلك الصديقة الجديدة بذت
تساقط ، لون عينيها العسلي ، إشراق ابتسامها الحلو ، نضارة بشرتها
إشراقية ، تلك الغدائر التي كانت تنساب على منكبيها فاحمة موجهة ...
ما أنجحه حديثاً لا أملك له من تعليل !

كنت أنت دائماً تترامى لي في صورة صديقتي الجديدة ...
وقد رمى ذلك بي في حيرة ممضنة ...

أ كنت بهذا الصنيع تسخرين مني ؟
أم كنت تلومينني ، على ما كان مني نحو هذه الصديقة ، من
عطف وتودد ؟ ...

وإنني على الرغم من هذه الملاح الجديدة التي كنت ألحظها في
طيفك ، لم أكن أعتقد في دخيلة نفسي إلا أنك أنت أنت ، روح
واحدة ، وإن تغيرت الملاح ، وتبدلت القسمات ...
ولكن أية ملاح أعني ؟ ...

لم أكن فيما سلف من أيامي أجتلي لك ملاح أو قسمات تعين
على التمييز والإيضاح ، فقد كنت دائماً في خفية وراء حجاب
الضباب ... أفكنت آتئذ على صورة واحدة لا تتغير ولا تتبدل ،
أم كانت صورتك تتغير وتتبدل خلف لثامك ، حتى انكشفت لي في
تلك الصورة الأخيرة التي أشبهت فيها صديقة المصيف ؟ ...

سيدتي :

إن الحيرة تغتالي، فلم آثرت ألا تُسفيري لي عن عيالك في
وضوح النهار، وتكشفي لي عن حقيقة شخصك، وتحسدني في
شأنك ؟ ... لم أقيت بي في مناهات الظن والتخمين، يلتبس عليّ
فيها الماء بالسراب ؟ ... مهما يكن من أمر فقد أحسست في
تلك الفترة أن عاطفتي تنجدد لك، وتتخذ لها هدفا ومرمى ...

إن حيي ليزدهر، ولسكان الفترة التي حسبها فترة تعقل واتزان
لم تكن إلا فترة استجهاام وتأهب للوثبة القصوى ...

فقلت إلى القاهرة، وبين الضلوع نار وارية، واستأنفت في
المطبعة عملي أنهض به في حماسة ونشاط، أحرص ما أكون على
مرضاة أستاذي، وولي نعمتي ...

وإني واثق أن ترسلنا قد انقطع هذه الفترة، ولكنني كنت
دائب التفكير فيك، وكثيرا ما كنت تزورني طيفا كشأنك،
ولكنه طيف تتجل في ملاح صديقتي في عش المضيف ...

وأقبلتُ على روضة الشريعة أرعى أزاهيرها، وأجلسُ إليها
أناجي حي الذي تتضرم ناره بين جنبي ...

ولكن أي حب هذا على وجه الدقة والتحقيق ؟ ...
أحيي إياك أنت يا ذات اللثام ؟ أم حيي لصديقتي الجديدة ؟

حسبي أني كنت أناجي من يخفق لها قلبي ، وأنشد من تحن إلى
لقائها نفسي ...

كنتُ فيما سلف قنوعاً بذلك التواصل الروحي ، يملأ سمعي
نغمًا ، ويهر عيني ضوئاً ، ولكني لا أتبين له شخصاً ...
أما اليوم فما أنا بقائع ولا مكثف بذلك العبق ، تهب على أنفاسه
من بعيد ...

ما أشوقني الساعة إلى لذة الاقتطاف ، ومتعة الاعتصار ...
يا طالماً نيتك في تلك الحقة جسداً يحتويه ذراعاي ، أستنشي
منه عطر المرأة ، لا عطر الزهرة ، وأسمع منه صوت الإنسان ، لا الحن
الأحلام ...

يا طالماً تشبعت أن تبسطني إلى كفك في تلك الزورات الأخيرة ،
كفك الرخصة البضة ، أبقها بين راحتي تبث في الحرارة والانتعاش ،
وأغتم منها قبلة حافلة أروى بها ظمأ الشفاء ، كذلك القبلة التي
اغتمتها منك ليلة الوداع لعش المصيف ...
أذاكرة أنت ؟ ...

كنا على الشاطئ . تنزه ، والليل ساج ، والنسيم خفاق ، وبيننا
حديث وشجون ... وأيقنا أخيراً أن التحدث لغو ، فقطعناه
بالصمت ، وأغتمنا لغة العيون تناجي بها قرة ، وإذا أنا آخذ

بيدك ألا طمعا ، وأردعها قبله عميقة حرى
لقد عاد أستاذى من مصيفه فى رأس البر ، وشمرت به يغرق
عطفه على ، عطف الأب على ابنه الأعز ، ورأيت يكاشفنى بالدقائق من
أحواله وأسرارها . وكثيرا مادعانى إلى تناول الغداء أو المشاء فى بيته
بين أسرته ، فليت الدعوة تواسى سباقا ، مثلوج الفؤاد .
وأكبر يقينى أننا لنستأنف تراسلنا ، وما حاجتنا إلى الرسائل ،
وقد تلاقينا بعد طول تجوال ؟ . . .

لامرية أن حبيبين تلاقيا ، ولكن ألفت فتاة . أخرى غيرك
هى « فتاة المصيف » ؟ أم لقيتك أنت « ذات اللثام »
لقد ربطت الزواج بينى وبين أستاذى « فتاة المصيف » ،
وعشت معها الأعوام الطوال ، حتى قضت منذ عهد قريب . . .
وأعجب ما كان منى أنى كنت كلما هممت أن أستوضح منها شيئا
يكشف لى ذلك السر الغامض ، سر العلاقة بين « فتاة المصيف »
و « ذات اللثام » ، وجدت كلما تى قد استحالت بسمات هادئة ، تستجيب
لها صاحبتى بالابتسام . . . فهل كنا تتكاشف بتلك البسمات الخفيفة
الغامضة ، ونستجلى دقائق القلوب ؟ . . .

سيدتى :

إليك قصتى ، رويتها لك جليلة صادقة ، رويتها لك يا « ذات

ذلكم : لكي أقتبس منك نورا يكشف لي ظلمات الحيرة والظن
والإيهام ...

ولا إخالك مجيئى إلا نقولك :

« دع عنك كل شيء ، وحسبك ما بلغته في حياتك من مآرب ،
فقد خرجت من حال إلى حال ، وبدلت باللبؤس نعمى ، وبالشقاء
هناءة ، وبالحول همة ومضاء ، فإذا أنت مرید فوق ما بلغت ؟ ..
فلا عليك أن يكون ما سلف من أحداث مغامرتك وهما أوحقيقة ،
فليس الوهم أهون أترا من الحقائق ، في توجيه العزائم ، وتقرير
المصائر ، وإصابة الأهداف ...

إن لم يكن لك يا سيدتى من جواب غير هذا الجواب ، فإنه
عندى فصل الخطاب ... وعليك سلام ...

الشیطان یلهو!...

زعموا أن شیخ الشیاطین لما حضرته الوفاة ، استدعى ولی عهده « بلزعبول » ، فلما قدم علیه ألغاه علی فراشه المصنوع من الحسك ، فجثا علی قدمیه ، وأطرق حزینا ، وأحس شیخ الشیاطین حضور خلیفته ، فرفع رأسه فی جهد وقال :

أصغ إلی یابنی !... لقد تأثرت آلاف السنین علی مملکتی ، فلم آل جهدا فی العمل . وفق قوانینا الحسکمة ، ولم أقصر لحظه فی خدمة مبادتنا ، ونشرها نشرًا موفقا ، فی أرجاء العالم .

فقال « بلزعبول » ، فی إخلاص وحرارة ، وهو علی حاله ، خافض الرأس :

هذا حق بامولای !...

وتابع شیخ الشیاطین قوله وهو یتهد :

ولکى یابنی — بالرغم من کل هذا — أجدنی غیر راض عما فعلته . .

فرفع « بلزعبول » الشاب رأسه المسنون ، وحدث فی وجهه الزعیم المحتضر ، والدمشة تتنازع ، وقال :

مولای !... لم يسبقك في الحكم زعيم أتى ما أتيت به... إن
ملككتنا — بفضل عزمك — قد نالت من الشهرة المدوية والسودد
والرفعة ؛ ما لم تنله في أي عهد آخر من عهودها السابقة...
وتقلب شيخ الشياطين على فراشه ، فظهر من تحت الغطاء
حافراء المشققان ، وقال في صوت أبح :
هذا حق ، من حيث قيامي بالواجب ، نحو عشيرتنا ومبادتنا ،
ولكني أقصد واجبي نحو نفسي...
فاهتز دبلزعبول ، وقال :

أنصح يا مولای !...

فاستطلات عينا الزعيم ، وارتفعتا حتى قاربتا قرنيه ، وقال :
إن قيامي بإغواء الأدميين ، والتغريب بهم — كما هو مفروض
في دستورنا الأعظم — أمر هين مبسور... وقد ساعدني على
إتجازه ما انطوت عليه سريرة الإنسان ، من حسن استعداد
لقبول بذرة الفساد... ، فإذا فعلت لأنال كل هذا الفخر...
— مولای !...

— اسمع يا دبلزعبول... لو لم نجد من الإنسان نفسه كما
سوته يئته عوننا على نشر غوايتنا ، لما استطعنا أن نفعل
شئنا...

— سيدى الزعيم ...

— اعترف معى ولا تكابر ... ماذا ترك لنا الادميون من شر ؟ ... لقد تغالوا يابنى فى مقدرتنا على إفساد العالم ، ونحن اثنان لا ثالث معنا ، فلتكلم فى صراحة ، ولنعرض أعمالنا مع البشر ... ماذا نقول فى هذه الآثام والشرور التى تموج بها النفس البشرية ، أهى كلها منا ؟ ... تكلم ...

— كلا أيها الزعيم ...

— إن الإنسان ليفعل الشر مطمئنا ، ثم لا يلبث أن ينحى علينا باللائمة ، فينفض عنه التبعة ، ويحملنا الوزر كله .. هذه هى الحقيقة التزمت أن أجاهرك بها ، لتجلو الغشاوة عن عينيك ...

وضعف صوت الزعيم وغار شذقاء ، وأخذت لحيته الزرقاء تُرعد على صدره . فبادر بلزبول ، لشاب ، وتناول قارورة يندلع منها لميب قان ، وأفرغ ما فيها فى فم الشيخ ، فسرعان ما اختلجت حدقتا عينيه ، وانتفخ وريدها ، ثم سمع يقول :

شكرا يابنى ... فإن أرغب فى إتمام حديثى إليك ...

— لئننى مصغ لك أيها الزعيم ...

— سيئول إليك يا بلزبول ، بعد حين ، أمر هذه المملكة

الضخمة ، فماذا أعددت لها من مناهج وأساليب ؟ ... لا تقل
إنك ستأثر خطاي ... لقد أوشكت لك أنى لم أفعل شيئا جديرا
بالفخر ...

... وماذا تريدنى أن أفعل ؟ ...

... افتح فتحا جديدا ، وشق أقفا بكرا ...

... مولاي ١٩ ...

... إيت بمعجزة ، تثبت لهم أننا أهل لغير الشر ...

وهنا بدأ جثمان الزعيم يحترق ويذارويدا ، وينبعث منه دخان
أزرق ، فسجد « بلزبول » ، فى خشوع ، والدخان حوله يتعالى
ويتكاثف ، حتى أصبح المكان معنا كفاح الجحيم ... ومالبث
أن سمع انفجار قوى ، فرفع « بلزبول » رأسه فوجد جثة الشيخ
قد اختفت ، ولم يبق منها أثر ... هنا صاح صيحة طالية ، ينادى
الخلصاء والأتباع .

وأقبلت الشياطين أفواجا تتزاحم على القاعة ، وقرونها المسنونة
تتوهج ، أذناها الطويلة تضرب الأرض ضربا متواصلا ...
واعلى الزعيم الشاب منصة الخطابة ، ثم صاح : سكوتنا ...
فبدأت الأذنان وانكشفت ، واستلانت القرون وتدلّت ، وقد
خبا وهجها ، وخشعت الأصوات ، وأرهفت الأذان ...

وتكلم « بلزبول » وقد نبقت في لحظة على وجهه الأمر لحية
الزعامة ، وقال :

يا معشر الشياطين الكرام ... إئتني أحمل لكم نحية زعيمنا
الأكبر ، ووداعه الأخير ...

فاهتزت القاعة على الفور بتهديدات ملتهبة ، وتبع « بلزبول »
قوله : إنه حتى الساعة الأخيرة كان يفكر في خيركم ، وحسن
سمعتكم ، وقد أودع صدرى وصية خطيرة ، ألزمت نفسى تنفيذها
على ضخامتها ، وعظم شأنها ... وسأجد معكم أيها الرفاق خير عون
وظهير ...

وتقدم « الأرقط » عميد المستشارين ، وقال :
وهل لمولاي الزعيم أن يعرض ، على حصاته وأنصاره ، هذه
الوصية الكبرى ؟ ...

— لأنها تتلخص في كلمتين ، ألقى بهما إلى زعيمنا الراحل ،
قال : « افتح فتحا جديدا ، وشق أفقا بكرا ، وأت للناس » بمعجزة
تثبت لهم أننا أهل لغير الشر ...

فاندلع اللهب من عيون الشياطين السنة طويلة ، وعلت
همهمة تساؤل وتعجب ، ودنا « الأرقط » من الزعيم ، وقد رفع
هامته ، وقال :

ثمة حيدة عن سبيل السلف الطيب الذكر ؟ ...
فتناول « بلز عبول » سوطا ناريا معلقا في الفضاء ، وشهره في
وجه « الأرقط » ، وهو يقول :
أئمة معارضة لباكورة أحكامي ؟ ...
نخر عميد المستشارين خاشعا يستغفر ، وقال « بلز عبول » :
إني أعرف صوالحك أكثر مما تعرفونها ، وسأعمل عل تنفيذ
وصية مولاي الأكبر ، في صدق وإخلاص ... تفرقوا ...

واحتبس « بلز عبول » في قاع الجب الأسود وقتنا طويلا ، وقد
أمر ألا يقلقوه ، وأخذ يفكر في وصية الزعيم ، وكيف يستطيع أن
يشق في حكمه أفقا بكرا ، ويأتى « للناس » بمهجرة ، تثبت أن
« الشيطان » قادر على عمل شيء غير الشر . وجعل يقلب الأمور
على شتى الوجوه ، ويبحث نفسه ويجادلها ، والأمل دائما يداعب قلبه .
لأنه لو وفق في مسعاه لأضاء اسمه في ملكة النار أبد الآبدين ! ...
والتفت عيناه بغتة ورقص قرناه وتعاقبا ، ثم انطلق في لمحة البرق
الخاطف ، يشق حجب الظلام واللهب حتى دخل قاعته في دار
الزعامة ، وصاح ينادى الخالص والاتباع ، فانطلق السقف ،
وتصدعت الجدران ، وانشق أديم القاعة ، وتباعث الشياطين منها

ملبية النداء... واعتلى « بلزعبول ، المنصة ، ووجهه محوط بهالة
أرجوانية ، مبرقشة بنقط زاهية ، وقال :

يا معشر الشياطين الكرام... لقد اهتديت إلى فكرة
أنفذ بها وصية زعيمنا الراحل ، على خير وجه... إنها ستبلغني
ولما كم طريق المجد الأبدى...!

وتقدم « الأرقط » ، عميد المستشارين ، يتسم في تلفظ ،
وهو يفرك يديه ، وقال :

هل لمولاي أن يشرح لنا فكرته ؟...

— ستعرفونها في إبانها . والآن أخبركم بأنني في حاجة إلى فئة
من ذكوركم ، وأخرى من إناثكم ، يرحلون معي إلى الأرض...!
— إلى الأرض...!

— أجل يا « أرقط » ، إلى الأرض... حيث أقوم بتجربتي
العظيمة ، معجزتي الطريفة التي سيهنز لها الثقلان...!

وصاح « بلزعبول » مناديا :

يا « زفاف »... يا « سرعرع »... يا « عتريس »...
يا « خلوب »... يا « ياساية »...!

ولبت ينادى من وقع عليه اختياره ، فاجتمع أمامه جمع من
الشياطين ، بين ذكور وإناث ؛ شبان وشيب...

وما إن استتم عددهم ، حتى صاح بهم :
اتبعونى

ونشر الزعيم جناحيه ، وانطلق شاقا سقف القاعة ، وأنبأه
الذين اختارهم فى أثره ، يرفون بأجنحتهم ، فيسمع لها أزيز مخيف .
وفى لحظة كان الزعيم وخلصاؤه على الأرض ، فى بقعة يقال
لها « الوادى الأجذب » ، وهى بقعة منسية لا يرتادها البشر لوعورة
أرضها ، وندرة الخيرات فيها ، حتى الوحش لم يكن يقربها
وأخذ « بلزعبول » على الفور ينفذ خطته ، فطار على البقعة يحدها
ويرسم معالم المكان الذى يريد إنشاؤه فيها . ولم تنقص لحظات ،
حتى انقلب ذلك « الوادى الأجذب » بحيرة هادئة صافية الماء ،
يتوسطها قصر من البلور ، مقام على عمد من المرمر ، محوط بيستان
ظليل فواح ، وقد ضرب حول هذا القصر وبستانه نطاق من
صحب مسحورة ، لم تدع له وجردا أمام أعين البشر
وحط « بلزعبول » على شاطئ البحيرة ، حيث ينتظره أعوانه
مدهوشين ، وقال :

يا « خلوب »

فتقدمت منه شيطانة حيزبون معمرة ، لها أنياب زرق مهشمة ، تلتحف
بعباءتها الدكناء المرقعة ، وتحتذى خفها القانى الممزق ، فقال لها :

لقد نذرت رئيسة لهذا القصر ، فـنـسـكـنـية مع توابات
الإثبات ...

ثم أخذ يتفحصها برهة ، وبرقت على وجهه ابتسامة سائجة ،
وقال :

ولكن يا د خلوب ، ، ابست هذه الطالعة وهذه الملابس
خلقة من اخترتها مرّية ، افضلي العذارى ، ...

فهممت : « فضلي ، العذارى ، ؟ »

— نعم « فضلي العذارى ، صنيعة ، معجزة العصر . .
فتهاست الشياطين فيما بينها ، وسكت « بلزبول ، وقتا ، وعيناه
تتوقدان ، ثم نادى :

يا « زفاف ، ...

فظهر شيطان عشوق القدر ، بوجه أجرد مستطيل ، فقال له
« بلزبول ، :

أما أنت ، فقد أفتك زعيها على الذكور من إخوانك ،
وسيكون مقرم ضفاف البحيرة تحرسونها ، وتمنعون عنها الطارقين
من بني البشر . . . لا يقرب القصر إنسان . . .

— أمرك مطاع يا مولاي

وعقد « بلزبول ، يديه على صدره ، وقال « لزفاف ، :

لا أنسى يا زقاق، ما قمت به من عمل مجيد يوم أرسلك
زعيمًا الراحل إلى الأرض على رأس بعثة الخريين ...
فأنحنى « زقاق » في رشاقة ، وقال :
مولاي ...

فأحد ، بلزبول ، بصره في الشيطان ، وقال :
ولكني لا أنسى كذلك ، وقد تكلم مسعاك بالنجاح في سبيل
نشر الخير بين البشر ، أنك عدت إلينا بقنينة من الشراب تخفيها تحت
جناحك ...

فرفع « زقاق » رأسه ، وقال في حرارة :
لقد كانت توبتي صادقة أمام الزعيم الراحل ، وحق أنفاسه الزكية !
— إذن يمكنني الاعتماد عليك ... والآن فليأخذ كل منكم
مكانه في هذه البقعة ، وليتظرني ...

وبسط زعيم الشياطين جناحيه ، واختفى في لمح البصر ، وعاد
بعد برهة يخفى تحت شملته شبتا ملفوفا ، يرددان أنفاس ، فذهب به
إلى القصر البلوري العالي ، وألقى به بين يدي « خلوب » ، وقال لها :
لقد أتيتك « بفضل العذاري » ...

— الأنسية هي يا مولاي ؟

— نعم يا « خلوب » ... أخذتها وقت مولدها من كوخ

أسرتها ... إنها تنتمى إلى طائفة الرعاة ...

— وتريد أن تجعل منها « فضلى العذارى » ، ١٤ ...

— لست أريدها « فضلى العذارى » ، فحسب ، بل أسمى مخلوق
من البشر . ستنشأ فى هذا القصر ، وفق برنامج دقيق أعدده لها ...
ستقومين أنت ورفاقتك بتنفيذه ... إنها وديعتى بين أيديكم ، ولن
أعود لرؤيتها إلا حين ينضج شبابها ، ويكمل نضج روحها ، ولكننى
سأشرف عليها عن بُعد ، سأكون رقيباً عليكم جميعاً ؛ فأياكم
والإهمال فيما أردتكم عليه ..

فابتسمت « خلوب » ، وكانت قد اتخذت لها هيئة مريئة ، يترقب
ماء البشر والطهر فى وجهها الوسيم ، ثم قالت :

كن مطمئناً يا مولاي ، سنعمل على تنفيذ أوامرك ...

ثم ابتسمت مرة أخرى ، وقد كشفت عن وجه الوليدة تأملها ،
فإذا هى ساجدة فى نوم هادئ ، فقالت :

وإذا وُفقت فى إرضائك ؟ ...

— سأقطعك الصحراوات السود ، وسأخترلك زوابعها

الهوج ...

فانحنى « خلوب » حتى قارب رأسها حافرى الزعيم ، وكلمات
الشكر تتناثر بين شففتها ، ثم رفعت بصرها إليه ، وقالت وهى

ما زالت تحتضن الطفلة :

إني مصغية لأوامر الزعيم ...

— سأحدث إليك برناجى مفصلا . أما الآن فحسبى أن أقول

لك : ستكون ربييتى وفضل العذارى ، مثلا كاملا لأحسن

مخلوق ...

فجئت المريية هامتها برهة مفكرة ، ثم قالت :

ليس ثمة إلا طريق واحد ، علينا اتهاجه ...

فقفقه و بلزعبول ، وقال :

أى طريق تزعمين ؟ ...

— أن نباعد بيننا وبين ما يسمونه الشر والالم ، كما هم معروفان

لدى الأدميين ...

فربت و بلزعبول ، كتفها بأصابعه العاجية ، وقال :

عوفيت يا د خلوب ، .. إني غفور بك وبذكائك ...

ثم اعتدل في وقفته ، ونادى د زافانا ، فلما مثل بين يديه . قال

له فى حزم :

لا يقترب من هذه المنطقة بنو البشر . وخصوصا الذكور منهم ...

أوعيت كلاي ؟ ...

— كن مطمئنا أيها الزعيم ...

ومرت الأعوام ، وكانت التقارير ترفع كل يوم إلى زعيم الشاطين
« بلز عبول ، حافلة بأخبار ربييته ، فكان يبسطها أمامه مغتبطا ،
ويقول لرئيس مستشاريه ، الجالس على عتبة العرش :
ماذا تقول في تجربتي هذه يا دأرقط ، ... ؟
— خلق إنسانة لا تعرف الشر ولا الألم ، تحيا في هناة دائمة
وطهر أصيل حقا ستكون معجزة الدهور
— ومن ثم يمكنني أن أنشئ على غرارها عالما نموذجيا ، لم تعلم
بوجوده البشرية
وانطلق يضحك في نشوة ضحكا رددته جوانب الهيرو صخباً
كصخب العواطف الثائرة

أما هناك في القصر البلوري المحوط بالبستان الفواح ، المقام
وسط البحيرة على أعمدة من مرمر ؛ فقد نشأت « أزاير » ،
ربيبة الزعيم ، نشأة لم يعرفها البشر حياتها ربيع دائم ، وطريق
عمد ميسور ويشتها جو رائق صاف ، لا أثر فيه للغمام ؛
فمخايل الغبطة لا تنحرف لحظة عن وجهها ، والألم لم يعرف مرة
وقعه في نفسها وكانت ترى إما غارقة بين وسائد هاليتها ، وسط
البستان ؛ تصغي إلى موسيقى خفية ، ثم تسأل « أزاير » نفسها لحظة

عن كنهها ومصدرها ... وإمام شموله بوصيفاتها الجميلات في البره
العاجي ، يسامرتها بحديثهن المألوف ، يسرن فيه على خطط مرسومة
في حدود معينة ... وإما مع مرييتها « خلوب » في القاعة الزمردية
تصغى إلى درس الحكمة ، وآداب السلوك ، وأصول الاجتماع ؛
وفق البرنامج الذي استنبطه « بلزبول » ...

فإذا ما أقبل سلطان الكرى ، يداعب في وداعة جفنها ، شعرت
بأيد خفاف ، تحملها إلى مخدعها الوثير ؛ حيث تستقبل أحلامها
المتشابهة ...

أما على ضفاف البحيرة ، فقد نشط زفاف ، وأعوانه للحراسة ؛
فلم يدعوا أى مخلوق - إنسانا أو حيوانا - يدنو منها . واقتنع
« الإنسان » بعد محاولات خائبة أن هذا المكان أصبح منطقة
حراما ممنوعة عليه ؛ فكم من مرة جاءت جماعات الصيادين تطلب
رزقها في هذه البحيرة العجيبة ، التي لم يكن لها وجود من قبل ، فلما
إن قاربها حتى قامت في وجهها الأماصير العاتية تصدها وتشتتها ...
ولن ينسى القرسان أنهم كلما جاؤا يرغبون في ارتياد شواطئها ، فيقضون
يها أياما في لهو وموانسة - لا قوام من الشر والعناء ما لم يكن في حسان ؛
إذ خرجت لهم من الماء طوائف من حيوانات مجهولة ، لم تقع عين
إنسان على مثيلاتها بشاعة وقسوة ، وراحت تضرب فيهم بقرونها

الحداد ، وتطيل عذابهم ، بالتلقيه عليهم من محنةٍ ولبيب .. وكذلك ظل
أمر هذا القصر وساكنيه سراخفيا مدفونا في قلب هذا الوادي القصى .
وانقطع الناس ، عن ارتياد البقعة ، ولكن عقولهم لم تنقطع
عن الكشف والاستطلاع ، فانطلق خيالهم يخترع وينمق ، وترامت
الإشاعات في كل ناحية وصوب أن بحيرة مسحورة نشأت في
الوادي المنسي ، تسكن ضفافها الشياطين ، وتخفى في أعماقها كنزا
عظيما ، هو كنز الخلود ، من كشفه فقد عرف سر الحياة ، فاستعصى
على الموت ، وعاش أبد الدهر . . .

وانتهت قصة البحيرة وكنزها إلى آذان الأمير زبرجد ،
فأنصت لها لاهيا بادي ذي بدء ، ثم لم يلبث أن ألفها تستبد
بمشاعره . والأمير زبرجد ، شاب وثاب المطامع ، جرى بهوى
المخاطر ، شغف بالفلسفة حينئذ ، فلما أحاط بدقائقها انتقل إلى
الغمروسية ، فبرز فيها أعلامها ، ثم انساق بعد ذلك إلى مجالى الشراب
والنساء ، فعب منها ما شاء أن يعب . وأخيرا برم بهذا كله ، وأحس
الملل يشيع في حياته ، ونشئت وطأته عليه . فوجد في قصة هذا
الكنز العجيب أكبر حافز له على النشاط والعمل على تبديد ضجره
وكان ذكي الفؤاد ، فأدرك أن القوة وحدها لن تنيله أمنيته ، فلا بد
له من اصطناع الخدعة والمكر ، والاختيأ سالب خفية من السحر ،

نعمد على الفور إلى « نيتي » عميدة الساحرات ! ... وكانت تسكن
تلة الجبل الأزرق ، في كهفها المنقور في الصخر ، لا يعيش معها
إلا بونو معتمدا . تلقى إليها بالوحشي ، وقرده تهديل الأشداق يقوم
بتي خدمتها . فتزلفت إلى السحرة بمنحة عظيمة القدر ، ورغب إليها
أن تقفه في علوم الشياطين ، فقادته إلى « سرداب الحكمة »
وهو حنية في قاع بئر عميقة ، تحوى جميع ما استغلق على البشر من
فنون الشياطين وأسرارهم ومكث الأمير أعواما يدرس من
غير كلال ، حتى استوعب موضوعه ، فخرج إلى النور صاحب
الوجه ، غائر العينين ، ولكن قلبه عار فياض . ..

ذهب الأمير إلى منطقة البحيرة مستخفيا يستطلع ، واستطاع
أن يدنو من المغارة الكبرى ، حيث يجتمع زفاف ، برقافه ،
يرسمون الخططمة ويسمرون أخرى ... وأنصت الأمير طويلا ،
فسمع أشتات من حديث منهم عن قصر عظيم ، وأميرة مُنمّة ، وشخصية
عظيمة تدعى « لزعبول » . ولما انفرد « زفاف » بصفبه « سرعرع » ،
استطاع الأمير « زبرجد » وهو في مخبئه أن يكشف من ثنايا
حديثهما سرا خطيرا ، هو أن « زفافا » يحبس في قلبه ميلا شديدا
إلى الخمر التي يصنعها البشر ، وأنه يحن إلى معاقرتها في تشوق
وفي الليلة التالية ، بينما كان « زفاف » في خلوته ، مع أميته

« سر عرع » ، إذ سمع لغطا وهرجا غير مألوفين ، تبين فيهما صوت استغاثة . ولم يلبث أن رأى رهطا من الشياطين الموكول إليهم الحراسة ، يدخلون وهم قابضون على شيطان أجنبي زرى الهيئة ، يحمل وجهه صعلوك شريد . . . فلما مثلوا بين يدي زعيمهم ، قال رئيس الحراس :

مولاي . . . وجدنا هذا الغريب يحول غير مبال في منطقة نفوذكم السامي ، فأتينا به ، لتروا رأيكم فيه . . .
فاضطجع « زفاف » على أريكته ، وقال للغريب ، وهو يتفحصه في تأق :

من تكون ؟ . . .

— خادمكم « طغيان » ، من عشيرة « الفتاكين » ، البواسل . . .
فقال « زفاف » :

إنها لسبة لا تمحى أن تنتسب لهذه العشيرة المجيدة . . .
ورأس « بلز عبول » ، إنك لدعي كاذب ، وسوف أقص منك أشد قصاص
فرع « طغيان » ، وهو يرعد ، وقال :

لا تحكم علي يا مولاي قبل أن تسمع قصتي . . .

— تكلم . . .

— لقد كنت من أشرف العشيرة ، قبل أن يحكموا علي بالنفي . . .

... ولماذا تفعل ؟ ...

... لأنني ذقت خمر البشر ، وأصبحت بعدئذ سيكثيرا ...
فأصابني « زفافا » هزة ، وصمت برهة ، وهو يقلب بصره في
« طغيان » ، ثم صاح بخاة :
هذا جرم كبير ، وإنك لتسحق عليه الحبس أبد الدهر في ققم
علقي في أعماق البحار ...
والتفت إلى الحراس ، وقال :
أنفذوا فيه عقوبتي ...

وتكاثر الحراس على « طغيان » يريدون القبض عليه ، فحاول
الإفلات منهم ، فزلت به القدم فوق ، وسقطت منه قنينة خمر
معتقة يخفيها تحت شملته ... وفاحت رائحة الخمر ، فعمت المكان
بأسره ... وأخذ « زفاف » يتقلب على أريكته تقلب المحموم ...
وما لبث أن صاح :

دعوه لي سأقتص منه بنفسى ... خروجا ...

وخرج الجمع ، وبقي « طغيان » ، منفردا مع الرئيس ...

* * *

وتقصت أيام ... ولوحظ على « زفاف » أنه يبادر إلى الخلوة
« بسر عرع » كل ليلة ، متبرما بجديث الرفاق الآخرين ، وشوهدت بعض

قنينات فارغة متناثرة ، غير بعيدة من مغارة الرئيس ، فأخذوا أعوان
يهايمسون ، ولكنهم لم يجرؤوا على فعل شيء ، ثم هزوا أكتافهم
في غير اهتمام ، وراحوا يتسعون ...

في إحدى الليالي خرج « طغيان » من المغارة ، بعد أن ترك
الرئيس وصفيته ملقيين على فراشهما ، يغطان غطيًا منكرا ، ويجوارهما
قنينة فارغة ... خرج « طغيان » وهو يخفى تحت إبطه الخف
السحري ، ويحمل في صدره كيسا فيه قبضة من مسحوق النوم ،
واتجه على التو صوب البحيرة فألقى الحراس كسالى يتنادرون ،
فرش في الفضاء جانبا من المسحوق ، فالبثوا أن طوام سبات
عميق . وامتطى الخف السحري ، وانطلق يجرى على متن البحيرة
يسابق الريح . وكان ييسم نفورا ، وقد استطاع أن يكشف من
« زفاف » سر القصر وريسته ، وأدرك حقيقة الأمر في قصة
« كنز الحياة والخلود » ...

واخترق منطقة السحب ، وكانت تحيط بالقصر من كل ناحية ؛
كما يحيط قشر البيضة بالفرخ الجنين ، فبان له على ضوء القمر الرائق
بناء شامخ ، ملاء من روعة وسحر ... ولكنه لم يضع وقته في التأمل ،
بل تابع ازلاقه على الماء ، حتى دنا من الباب المقفل ، فلم يتمهل أمامه ،
بل مرق منه مروق السر في الأذان المرهفة ، وذهب على الفور إلى

الردده التي تنام فيها ، خلوب ، وأعوانها ، فألقى فيها بشيء من
مسحوق النوم . ومن ثم خرج ، واعتدل في وقفته ، ثم انتفض
انتفاضة ، فإذا بالصعلوك الرث الهيئة فارس رشيق ، في حلة
ثمينة ... وتقدم في خطا هينه نحو مخدع ، أزاير ، ... ١ .

ووقف عن كثب من الفتاة يتأملها ، وهي غارقة في فيض
هادئ من نور القمر المحتجب ، فبهره حسناتها . لقد كانت كاملة
الأوصاف يزدها بها حلتها المنسوجة من ناضر الزهر ، وفراشها
المصنوع من خُصَل العذارى ... ١ . وكانت أنفاس الليل العبقّة
تشيع في الجرد دافئة طيبة ... ١ . ووقف يتوسمها طويلا ، ويسجب
لهذه الانتسامة الوصاحة على وجهها العاجي ... ١ . وساءل نفسه :
لماذا أتى ؟ .. وما الذي يتوى عمله الآن ؟ ... ٢ .

ووقف مترددا ثم وجد نفسه يتقهقر في حذر ، يحاول الإياب ،
فعثرت قدمه بوسادة ، فوقع على الأرض ، ولكنه نهض عجلا يلم
شعته ، ويسارق الفتاة النظر ، فألفاها قد انتهت ، وسمعها تقول في
لهجة ذات نغمة منسجمة :

هل أرسلتكِ ، خلوب ، بشيء ؟ ... ١ ؟
فابت برهة وهو صامت ، يحدّ بصره في عينيها وداخله الشك
في أمرهما : أعينان طبيعتان تبصران ؟ أم صنعة بلور ؟ ... ١ ؟

وسمع صوتها مرة أخرى في لهجتها المنتظمة :
لماذا أيقظتني ؟ ...

ودنا منها وأنحني أمامها ، وقال :

السلام على الاميرة دأزاهير ، ...

فلم تتغير ملامحها ، وعجب لهذه الابتسامة الغريبة التي بقيت
على حالها ، لم يتبدل لها وضع في نوم أو يقظة .
وغمغمت الفتاة :

إن صوتك غريب ... وأغرب منه هذه الملابس التي ترتدينها .
لم أرسلتك دخلوب ، إلى ...

وم الأمير أن ينهبها إلى خطتها في خطابها إياه بصيغة المؤنث ،
ولكنه ابتسم وقال :

لم أرسلني دخلوب ، بل أتيت من تلقاء نفسي ...

— لم أرك هنا من قبل ...

— لست من سكان القصر ...

— من أنت ؟ ...

ألقت عليه هذا السؤال في لهجة أدهشته كل الدهشة ، لم تتغير
نبرة صوتها ، ولم تم صفحة وجهها ذي الابتسامة الدائمة ، عن أي
انفعال أو تأثر ... وهاتان العينان البلوريتان كانتا على حالهما في

الامعان والجلود... وتراجع نحو الباب، وهم أن يلوذوا بالفرار، ييدانه
وجدها قد نهضت من الفراش، وكانت رائحة القوام وليكنها لم تكد
تسير يضع خطوات، حتى ترامت له كأنها تمثال يتحرك، وسرت في
جسمه رعشة، وطافت برأسه شتى الأفكار، ورآها تتقدم نحوه،
ثم لمست ثوبه وتنحصة، وقالت:

ستحضر لي «خلوب»، ثوبا كهذا بلأريب...!

ورآها تمسك يده، وتخرج معه إلى الشرفة الكبيرة التي
تجيط بالقصر من كل جانب، وكان المكان هادئا بالغ الهدوء،
ونور القمر على حاله ينفذ من الضباب راتقا مصفى، وأزاهير،
تسير في خطواتها البطيئة المتماثلة، وانسانتها هي هي لا تفيض
ولا تفيض... وقالت له وهي تنظر أمامها:

لستم تخبريني من أنت؟...

فابتسم لها، وقال:

أيهمك أن تعلني من أنا؟...

ف نظرت إليه ببلورتها اللامعتين، وقالت:

كلا، ولكن إذا رغبت في التحدث في هذا الشأن، فسأصغى

إليك...!

— إنى لست من أهل هذا المكان...!

- أنتِ إذن ، من العالم البعيد ، ؟ ..
وأشرق وجهه تطلعا ، وقال :
اتعرفين شيئا عن هذا العالم البعيد ، ؟ ...
— إنه عالم الصخب والشور ...
— ثم ماذا ؟ ...
— لا شيء ...
— كيف لا شيء ؟ أهذا كل ماتعرفين عن العالم البعيد ، ؟ ...
— لم تريدني أن أعلم أكثر من ذلك ؟ ...
— مجرد المعرفة ...
— إن المعرفة شاسعة ، والمجهول عظيم ... فلا يمكننا الكشف
عنهما مهما تفعل . لأن هذا خارج عن نطاق قدرتنا العقلية ...
— ولكن ثمة أسرار عن هذا المجهول ، قد نستطيع الوصول
إلى معرفتها .
— لن تصلِ إلا إلى التافه الضئيل ... وسيظل المجهول مجهولا إلى الأبد .
— لكن هذا التافه الضئيل قد يفيدنا ... وربما قادنا إلى العظيم ...
— وهُسم ، ما تقولين ... فقد يكون في الكشف عنه أكبر
الشور . فمن الخير تركه ...
كانت تتكلم بلمهجة المتزنة ، كأنما شيخ وقور ، أوفقيه فيلسوف

ووقع بصرها على قلنسوته ، فسألت :
ما هذه ؟

— قلنسوة ...

— ماذا ؟

— غطاء للرأس ، ...

— ولماذا تغطين رأسك ؟ ...

فأعاد جملتها مفكرا :

لماذا أعطى رأسى ؟ ... لقد نشأت وأنا أتخذ هذا الغطاء

للرأس ، دون أن أسأل عن فائدته ... لعله فى الأصل قد استعمل

لحماية الرأس ...

— أترينه يحمى رأسك الآن ؟ ...

— ليس كثيرا ...

— إذن لماذا تستعملينه ؟

— أرجح أنى أستعمله للزينة ...

— ولماذا تزينين ؟ ...

— لماذا أزين ... ما هذه الأسئلة ؟ ...

— أترينى قد ضايقك ؟ ...

— كلا ، ولكنك منذ حين كنت تتكلمين عن المعرفة . وأنه

ليس ثمة فائدة من الاستزادة منها ... وأنت في الوقت نفسه، لكي
تزدادى معرفة ، تطريننى وابلا من الأسئلة ...

— يلوح لى أنى أخطأت ...

— بالعكس ... رأى أنك أصبت الإصابة كلها ...

فصمتت برهة ، ثم قالت :

ألا تقولين لى لماذا تترينين ؟

— لتغدو هيتى مقبولة ...

أى أن هيتك بدون الزينة غير مقبولة ...

— يحتمل ...

— إذن ماتفعليته تفاق وتغيرير ...

فخدق فيها الأمير وقتها ، ثم ابتسم وقال :

قد يكون لوفا من التفاق والتغيرير ...

— إن التفاق والتغيرير شر جسيم ...

فانطلق الأمير يضحك ، ثم أخذ يديها ، وقال :

« أزاهير ، ... »

— ماذا ؟ ...

— أراك تتحدثين عن الشر ، فهل تعرفين ماهو ؟ ...

— هو شىء ردىء ...

- هل أتيت الشر لتفهمي ماهو ؟ ...
- لم آتته قط ا... .
- إذن كيف تعرفينه ؟ ...
- أعرفه بضده ، فأنا بالخير عليمة ا... .
- أمعرفتك بالخير الصرف كافية لأن تفهمي الشر ، وتميزي بينه وبين ضده ؟
- بلا ريب ا... .
- ودنا منها على مهل ، حتى تقارب وجهاهما . ثم اقتطف من فمها قبلة ، وقال وهو يرنو إليها :
- أمن الخير هذا أم من الشر ؟ ...
- ولبثت « أزاهير » صامئة تنظر إليه ، ووجهها كما هو بملاعه الصلبة . غير أن أمرا واحدا قد وقع : أن ابتسامة وجهها قد اعترتها بعض خلجات خاطفة ، وسمع الأمير « أزاهير » تقول
- ماذا تقصدين بما فعلت ؟ ...
- قبلك ا... .
- ماذا تقصدين بأنك قبلتني ؟ ...
- وصلت بين روحي وروحك فترة من الزمن ا... .
- فتوقفت « أزاهير » عن الكلام مفكرة ، ثم همست :

وصلت بين روحى وروحك ١٩
وأرسلت الفتاة بصرها فيه ، وهى تقول :
وما الذى دعاك أن تفعل ذلك ؟ ...
— إعجابى بك ا... أنت رائمة الجمال يا دأراهير ، ...
وأنصت إليه ، وابتناسمتها تغزوها الخلدجات بين حين وحين ،
وقالت :

أنا رائمة الجمال ؟ ...
— ألا تعرفين ذلك ؟ ا...
— وما هو الجمال ؟ ...
— الجمال ضد الدماة ؟ ...
— وما هى الدماة ؟ ...
فضحك الأمير ، وقال :
ضد الجمال ا...
— أنت تعبثين بي ا...
— ألم تقولى إن كل شيء يميز بعنده ؟ ...
— ألا يمكنك أن ترى شيئا دميما ؟ ...
فالتفت حوله ، وهو يجمجم :
هنا كل شيء جميل ، مع الأسف ا...

فأمسكت يده ، وقالت :

قولى لى ، ما هو الجمال ؟ ...

— الجمال ! ... الجمال هو ما تهواه النفس ، فيبعث فيها الغبطة

والارتياح ...

— إذن كل ما هو حولى جميل ؛ لأنه يبعث فى نفسى الغبطة

والارتياح ...

— بلا جدال ! ...

فصمتت برهة مفكرة ، ثم قالت :

لماذا لا يحضرون لى شيئا دميما أراد ؟ ...

فابتسم الأمير ، وقال :

يلوح لى أن الدمامة شرا ...

— وهل هى موجودة فى « العالم البعيد » ؟ ...

— « العالم البعيد » يزخر بشتى الألوان ؛ من جميل ودميم .

وخير وشر ..

فاضطربت أنفاسها شيئا ، وقالت وهى تتحدّ بهرما فيه :

— ألا تتحدثينى عن العالم البعيد ؟ ...

— قد أريك إياه يوما ... أما الآن ...

وأمسك يدها يلاطفها ، وقال فى حنو :

الآن أريد أن أحدثك عن نفسك ... أنت رائعة الجمال
يا دأزاهير ، ... رائعة كأنفاس الصبح ، بديعة كورد الريح ...
يُبدَأُ ...
— ماذا ؟ ...

وصمت هنيهة ، ثم قال :
أرى أن زيارتي قد امتدت ، فأغارت على وقت نومك ...
ألا تأذنين لي بالانصراف ؟ ...

— ومتى تعودين ؟ ... :
— أنت في حاجة إلى ؟ ...
— لتسمعينى شيئاً عن " العالم البعيد " ... :
— قد أعود ، وقد لا أعود أبداً ... :

فاختلج وجهها ... ودنا منها ، وطوقها بذراع ، وأمال رأسها
على صدره ، وقبلها قبلة طويلة ، وما كاد ينتهى منها حتى أبصر عينيها
البلوريتين المتناهيتين فى الصفاء والسكون ، قد طافت بهما بعض
غيوم مرهبة ، وغاضت ابتسامتها لحظة ، وهى تقول :
اخرجى واتركينى ... ولا تعودى إلى أبداً ... :
وفى لمحج البصر أخيفى الأمير عن وجهها ...

تلك هي المرة الأولى التي تتأخر فيها الأميرة «أزاهير» في نومها، ولما أحضرت لها «خلوب» الفطور، لاحظت على وجهها العاجي الناصع حمرة خفيفة، كما أن لمعة عينها لم تكن في صفاتها المألوف، ولكن ابتسامتها ما زالت كما هي لم يتبدل لها شكل... وبينما كانت «خلوب» تلتقي على «أزاهير» درس الحكمة إذ بالفتاة تقطع عليها حديثها، وتقول:

كيف أستطيع أن أميز بين صديق إذا جهلت أحدهما؟...
فتفحصتها «خلوب» برهة، ثم قالت:
هذا موضوع قد فرغنا منه، بعد أن وفيناها حقه... أنسيت
ماقنتك إياه؟...

— إنني أحفظه كلمة.

— إذن علام هذا السؤال؟...

— هكذا...!

وانطلقت «خلوب» تعيد على مسامع الفتاة ما كانت لقتها
إياه في هذا الموضوع، و«أزاهير» أمامها تنظر إليها مصغية...
وقالت لها بغتة:

ألا تخبريني بذلك «الامر» الذي يصل بين روحين؟...
فرمتها «خلوب» بنظرة عميقة، وغمغمت:

لذى يصل بين روجين ا...
ثم اقتربت منها عجلة ، وقالت :
ما هذا الذى يهيجس فى خاطرك اليوم ؟ ...
فتركها « أزاهير » ، وسارت نحو النافذة ، تستقبل بسمات
النسيم ، ثم تمددت هادئة على متكأ وثير وأغمدت عينيها ...
وهرعت « خلوب » ، إلى الواصلات ، فأسرعت إليهن بمارات
وما سمعت ، وسرعان ما سرت الرعشة فى أبدانهن ، وانطلقن
على الفور يتناقشن فيما يجب عليهن من عمل . أيعرضن الأمر على
« زفاف » ، ليبلغه إلى الزعيم ، أم يكتمن الخبر خشية العقاب ؟ ...
وبعد مفاوضة أخذن بالرأى الآخر ، واعترفن أن يعالجن
الموضوع فى تدبير وحكمة ، وأن يشددن الرقابة على « أزاهير » .
وحل المساء ، وآب كل إلى مخدعه ، وأسبلت « أزاهير » جفنيها
ولكنها لم تم . كانت تنصت إلى كل حركة أونامة ... وبغته فتحت
عينيها ، وقالت :

هاقد أتيت ا...

وسمعتة بقول :

لقد رغبت فى حضوري ا...

وكان يرتدى حلة جديدة لا يلبسها إلا أبناء السراة ، ويتقلد

عذرة المرة على جنبه الأيسر سيفاً ذا مقبض مرصع فقامت إليه ،
ووقفت أمامه تنفح صه معجبة بهيئته ، ثم قالت :
ما هذا المعلق على جنبك الأيسر ؟ ..

— سيفي ...

— عصا تعبين بها ؟ ...

— بل أذيق بها الموت ...

وأخذت سيفه تصاليل النظر فيه ، وهي تردد :
الموت ...

— حذار ، فهذا السيف رسوله الأمين ...

ورفعت عينها إلى وجهه ، وقالت :

ما هو الموت ؟ ...

— الموت ...

ثم تريث ، وعاد يقول :

الموت ضد الحياة ...

— ضد الحياة ؟ ...

— كل ما هو من خصائص الحي من حركة وتنفس ووحدة

جثمانية ، وما إلى ذلك ، لا تجدته في الميت ...

— إذن فالموت انقلاب قطيع ...

— بل تغير بسيط : تحول يطرأ على المركب فيحمله إلى
عناصره البسيطة ...

— أشر هو ؟ .

— من يدري ؟ ...

— كيف لا تدرين ؟ ...

— تعالى إلى البستان نستشق نسيم المساء ...

وأخذ بيدها فخرجا إلى الشرفة ، ثم هبطا إلى البستان ...
حديقة فواحة ممتلئة بأصص الأزهار والأشجار ، ذات تنسيق
فريد ، تشقها طرق مرصوفة بالحصى الملونة ، وتجرى فيها
جداول عذاب . وكان الصمت شامسا يغشى كل شيء ، فيسمع
لخفق الأقدام وقع جميل ...

ووقع بصر الأمير على وعاء من المرمر فيه سائل ، فقال لها :
ما هذا ؟ .

— عصير من الفاصكة صنعته ، خلوب ، ...

— أهو شرابك ؟ .

— نعم ...

— أسمحين لي أن أذوقه ؟

— خذي منه ما يروقك ...

جرجع الأمير من الوعاء جرعة ، ثم قال :

شراب لذيق لم أذق مثله في حياتي ...

— أرينه كذلك ؟ ...

ورنت إليه ، أزهير ، برهة ، فابتسم لها ، وقال :

أسمحين لي أن ألقت نظرك إلى خطأ تقدمين فيه وأنت

تحدثينني ؟ ...

— أي خطأ تعنين ؟ ...

— تخاطبينني بصيغة المؤنث ...

— ماذا تقصدين بذلك ؟ ...

— إن دنيالك كلها إناث على ما يلوح لي ... أما دنيای فغيرها

الذكور والإناث .

ثم أخذ يشرح لها ما يلائم كل جنس من نعوت ، وما يجب

عليها أن تخاطبه به ، فقالت له في يسر :

إذن أنت من الصنف الأول ؟ ...

— أصبت ...

فسرحت بصرها في الأفق مفكرة ، وقالت :

وهل ثمة فارق بين الجنسین ؟ ...

— نعم ، ولكنه فارق لا يبايد بينهما ، بل يجمع ويؤلف ...

- كيف يجمع بينهما ويؤلف ؟ ...
- بالحب ! ...
- الحب ... ما هو ؟ ...
- هو امتزاج بين عنصرين ! ...
- أخير هو ؟ ...
- بل شر جميل ! ...
- شر جميل ؟ وكيف يتحد العندان ؟ ...
- فأجال الأمير فكره لحظة ، ثم لم يلبث أن أخرج من جيبه شبه
مدية ، وسرعان ما جرح بها بطن كفه ، فانبثق الدم من الجرح لجمعه
في راحته . فقالت له أزهيرة ، وهي تراقبه :
- ما هذا ؟ ..
- بعض قطرات من دمي ...
- دملك ... ماذا تعني ؟ ...
- دمي ... نعم دمي ... السائل الذي يغذي جسدي .
- ومالي به ؟ ...
- ذوقه ...
- لماذا ؟ ...
- قلت لك ذوقه ! ...

فما كادت تذوقه ، حتى قالت :

ليس طيبا . . .

— إنه كريه المذاق . .

ومزج الأمير ما جمعه من دمه بعصير الفاكهة ، وقدم الوعاء لها ، وقال :

اشربي . .

فأطاعت ، وقال لها وهو يراعيها :

أليس من السهل أن يتحد الضدان ، ويكونا مزاجا عجيبا ؟ . .
فتمتعت الأميرة :

إنه مزاج لطيف . . .

وأقبل عليها الأمير ، ولف نفسه وإياها في عباة ، وسرعان
ما وجدت أراهير ، نفسها متعلقة به ، وهو يطير بها في الجوتاركا
القصر وساكنيه . . . فأحست شعورا غامضا غريبا يسرى في
جسدها جعلها ترتعش ، فهمست قائلة :

ماذا تقصد بهذا ؟

— أريد أن أحملك إلى موطن الشر والجمال . .

وكاد الدهول يستولي عليها ، واستبدت برأسها الدوار ، فأراحت
إلى صدر الأمير ، وأطبقت جفنها . . .

وجعل الأمير يرتو إليها ، وهو يعلو بين طبقات السحاب .
فوجد شفتيها ترتعشان ، وقد اصطيفتا بحمرة لطيفة ، فأدنى وجهها
من وجهه ، وغاب وإياها في قبة مديدة . . .
ولما أراد إيقاظها همست قائلة ، وفيها على فه :
دعنا كذلك . . .

— ولكتنا وصلنا . . .
وفتحت « أزاهير » عينيها ، فنشيتها الأنوار الخاطفة ، لحجبت
نظرها بيديها ، وهي تقول :
أين نحن الآن ؟ . . .

— في إيوان من قصرى . . .
وأخذ يدها وأجلسها على متكأ وثير ، وقال لها :
استريحى لحظة ريثما أرسل من يحضر لك ملابسك الجديدة .
— ملابس كلا بسك ؟ . . .
— بل ما يشابهها . . .

واكتفت أذنها بعض الصيحات والطبقة المختلفة ، فقالت
وهي تحاول أن تنظر إلى وجهه :
ما هذا ؟ . . .
— إنها نتيجة الاحتفال . . .

أى احتفال ؟ ...

... لقد جمعتُ في البهو الكبير القائم تحت هذه الحجرة جماعات
من الناس ، سيقضون الوقت ، في طعام وشراب ، ثم في سمر ورقص
ومساء ..

— وأنا ؟ ...

— لا تخشى شيئا ، سأذهب لأدعو بوصيفة معها الملابس ...
وتعلقت به ، وقالت :

لا تتركني ! ...

— سأكون على مقربة منك ...

وخرج الأمير من الحجرة ، وبعد قليل دخلت الوصيفة
بالملابس ، واختلت بأزاهير ، ...

وخلعت الفتاة ملابس الزهر ، وارتدت ملابس الأميرات
من بنى الإنسان . ووقفت أمام وصيفتها تزينها وتعطرها ، وتصفف
شعرها ، وتلبسها الحلى الغوالى ، ثم ذهبت بها الوصيفة إلى مرآة كبيرة
فما إن تراءى لها خيالها كاملا تجاها حتى تراجعت بضع خطوات ...
ثم مالبت أن تقدمت وهي تتأمل نفسها طويلا .

ودخل الأمير « دوبرجد » وهو يصبح طربا :

يا للجمال الإلهى ! ... تعالى فقد حان الوقت لأن أظهرك

للدعوين . واف ساعده بساعدها ، وترك الحجرة ، وانه ام تسير
بحواره صامته وعيناها تائهتان . وما إن أقبلت على السلم ، واخذت
ينزلان في الدرج ، حتى لحقت « أزاخير » البهو الأدنى يموج بحشد
كبير من الزوار ، فتوقفت ثم غمغمت :
لا . لا . لا أريد . . .

— كيف ؟ . . .

— عد بي إلى قصرى . . .

— ألا تريد أن تشاهدى دنيائى ؟ . . .

— وماذا يهمنى منها ؟ . . .

— فى الواقع لا شئ ، ولكن ثمة نساء فى البهو ، أميرات
وغير أميرات ، تتنافسن فى الملاحاة والزينة والمقدرة على اصطیاد
قلوب الرجال . . . إنه منظر فريد . . . يجب ألا يفوتك مرآه . . .
فقال بصوت خافض :

عد بي إلى قصرى . .

ونزل معها فى الدرج ، وهى تزداد التصاقا به . وما إن أشرفا على
البهو حتى شخصت إليهما الأبصار ، وسكنت على الفور الضجة . وبعد
برهة سمع هتاف الجمع يردد :

مرحبا بالأمير « زبرجد » . . .

وأجاب الأمير صائحاً:

مرحباً بكم أيها الإخوة ان ... لقد وعدتكم بمفاجأة طريفة ، وقد
وفيت بوعدي ... إن الأميرة «أزاهير» سيدة مملكة السحاب ،
قد تواضعت فشرفت بحضورها هذا الاحتفال ... حيوا الأميرة
معى ورددوا : مرحباً بالأميرة «أزاهير» ، سيدة مملكة السحاب ! ..
فصاح الجمع بعده يردد قوله في حماس ، ثم ركع الأمير «زبرجده»
أمام «أزاهير» وثم يدها ، فأنحنى الناس كلهم لها في تحية طويلة .
فهمست «أزاهير» نحدق برهة فيهم ، ثم رفعت رأسها في زهو
وخيال ، وزدت تحيتهم في صيحة عالية : ...

وسار بها الأمير يخرق وإياها الصفوف ، والجمع يتزاحم
حولها يلتمسها بعيونه المتطلعة ، وأخذت الضجة تعود إلى سابق
عهدا ، وانطلقت الموسيقى تخلق بأغانيها في جو المكان ، وقد اشتد
سطوع الأنوار ، وكانت «أزاهير» تسير وهي لا تعرف من أمرها
شيئاً ، لقد اختلط أمامها كل شيء ... ما هذا الذي تراه : أحقيقة
هو أم خيال ؟ وما هذا «الزبرجده» «المجيب» وما شأنه معها ؟ ... وهذا
الجمع المحدث بها ، وهذه الأصوات ، وهذه الأنوار ... إنها لتعجز تخاذلاً
ورأها الأمير ترمح ، فاحتضنها فاذا هي تفقد الحس بين ذراعيه ...
وذهب بها إلى حجرة قريبة ، وأرقدها على أريكة لينة ، ولم يدع

أحدا يقبعه ، وعُسى بها حتى أفاقته وإذاً رأتها قالت :
ماذا حدث ؟

— لا شيء ! .. أخذك على حين غرة نعاس رقيق ! ...

فدارت أعينها حولها ، ثم قالت :

عدي إلى قصري ! ..

— فذاه ففكرت فيه أيضا ! ...

— هلم ! ..

وأدى كاسا من فيها ، وقال :

اشربني ! ...

— ما هذا ؟ ..

— شراب مقيد ! ..

فشربته على مضض ؛ إذ لم تستغ مذاقه وقالت :

أشعر بجسمي يلهب ...

— لا نخشى بأسا ..

— متى نعود ؟ ..

— في الحال ! ...

— وأنت ماذا تمنع بعد عودتي ؟

— سأرجع هنا ! ...

وأخذ كأسا فأفرغ شرابها في فمه دفعة واحدة ، فقالت :

أتب هذا الشراب ؟ ...

... نعم ! .. لما فيه من قوة خارقة ! ...

... لمقتنى منه ! ...

وخرج الأمير « زبرجد » ، و « أزهير » ، ثانيا إلى البهو ،
فاستقبلهما الجمع بالتهلل ، ثم لم يلبث الناس أن انصرفوا إلى
رفصهم ، وأخذوا بين الفينة والفينة يطعمون ويشربون ، فاندفع
« زبرجد » بفتاته معهم يشاركونهم طربهم وقصصهم ... ووجدت
« أزهير » نفسها تضحك كما يضحكون ، وترقص كما يرقصون ،
وأصرفت في الشراب . وكانت تلازم الأمير ، لاتدعه يبتعد عنها .
واقبلت مرة فرأت نفسها أمام كأسها منفردة ، وعن كذب منها
جماعة من الفتيان ينظرون إليها مبتسمين ، وحدثت من بصرها
حولها تبحث عن الأمير ، وبعد لآي وجدته في حلقة الرقص مع
فتاة يخاصرها ، فألفت نفسها ترك مكانها على عجل متجهة صوبه ،
فلما دنت منه اختطف سيفه من غمده ، وفي لمح البصر أحست
يدها تهوى على الأمير ، فس السيف كتفه ، ثم ارتدت صائحة ،
وقد خُيِّلَ لها أن الأرض تميد تحت قدميها ، وأن البهو قد انقلب

فأصبح عاليه أسفله... وراة نفسها تسقط... ولما عاد إليها وعيا
ألقت نفسها مع « زبرجد » منفردين في حجرة ، فبادرته بقولها :
ماذا فعلت ؟ ...

فأجابها مبتسما :

ضربتني بالسيف ! ...

— إذن قتلتك ؟ ...

— كلا ! ...

— بل أنت ميت ! ...

— لم أمت ...

— كيف ؟ ...

فلأطف خدما ، وقال :

إن السيف في يد الحساء يفقد مضاءه .

— أنت تكذب ! ...

— « أزاير » ! ...

— لقد أنت « أزاير » أمرا فظيما ...

ثم امتلات عيناها بقة بالدموع ، ومالبثت أن أحست بالقطرات
الساخنة تسبح على وجنتها ، حتى ارتاعت وأخذت تحسبها
بأصابعها ، وتقول :

ما هذا ؟ ...

— إنها دموع تسكبها عيناك ؟ ...

— دموع ؟ ومن أين أتت ؟ ...

— من نبع قلبك ...

— أليست في روحي تنسكب قطرة قطرة ؟ ...

وأرادت «أزاهير» أن تسمع تلك القطرات بكفها، فقال لها الأمير:

لا تفعل ! ...

— لماذا ؟ ...

وأمسك يديها ، وجعل يحرق في وجهها وقتا ، وقطرات
الدموع اللؤلؤية تنحدر على صنحته ، نارة هادئة وطورا عجيبة ، ثم
أدنى رأسها منه ، وهوى على فها يقبلها قبلة حافلة ! ...

وأخذ الأمير فتاته بين ذراعيه ، وبسط على منكبيه عباءته ،
وطار بها يشق السحب عائدا إلى القصر . وفيما كانت «أزاهير»
متوسدة رأسه وهي تنظر إليه ، وهو يطوى أطراف عباءته
ويسطها كما يفعل الطائر بجناحيه ، همست في أذنه :

عجيب أمر هذه العباءة ! ..

— إنها بدعة البدع ، تخفى من يرتديها عن العيون ، وتذهب

به حيث شاء ، متى شاء

ودخلا القصر . وأشعة الفجر ترحب بهما ، وأرقد زير جده الأميرة
على فراشها ، وقد أصبح وجهها يتلهب بنضرة الحياة ، ثم وقف قبالتها
صامتا ، وظره لا يفارق طلعتها ، فقالت له وقد ألح عليها التعب :
لماذا تنظر إلى هكذا ؟ . . .

— إنها نظرة الوداع الأخير يا أزهير

فتفتحت جفنها الذابلين ، وقالت :

أتزعم أنك لن تعود ؟ . . .

— نعم . . .

ثم صمت برهة ، وهو ينظر أمامه نظرا تائها ، وهجس .

لماذا أردت كشف سر هذا المكان ، والوصول إليك ؟ . . .

ثم ركم أمامها ، وأمسك يديها ووجهه قبالة عيناها ولشاوقتا
ونظرا بينهما متصلة ، ثم انحنى الأبر على يديها ، واندفع يائسا ..

وقام يريد الخروج ، فاستبقته قائلة :

ألا تترك لي شيئا يذكرني بك ؟ . . .

— أترغبير في شيء معين ؟ . . .

فهمست له برغبتها .. فوقف أمامها برهة مترددا ، ثم ناولها ما

طلبت ، وخرج على عجل ! ..

قامت «خلوب» إذ رأت أن النوم قد استبد «بأزاهير» إلى وقت متأخر ، فدخلت عليها توقظها ، ولما دنت منها لحظت أن وسادتها مبتلة ، وقد عهدتها دائما جافة . أهو ندى الفجر قد تسلسل قبلها ؟ ... ولكن نظرة واحدة إلى وجه «أزاهير» كانت كافية لأن تلقى بالرعب في قلبها ..

وتقدمت «خلوب» فأيقظت «أزاهير» ، وما إن فتحت الفتاة جفنها حتى بادرتها المريية بقولها :

أشاهدت رؤيا أثناء نومك ؟ ...

— رؤيا ؟ ...

— رؤيا رهينة ؟ ...

وأخذت «أزاهير» تتلفت حولها ، ثم قالت :

رأيت كأن السحاب الذي يحيط بالقصر قد هبط ولامس الماء ...

فنظرت إليها «خلوب» وأجته ، ثم خرجت تعدو إلى الوصيفات .

وهي تكاد تهجن ، وشرحت لمن حالة «أزاهير» فسرت في أجسادهن

الوعدة ، وتمثلت لمن مملكة الظلام بأعاصيرها السوداء الهوج ،

تلهب أجسادهن بسياطها الكاوية ، إذ أعدها لمن «بلزبول» ، إذ لم

يصبن نجاحا فيما كلفته ...

وتفرقن شيئا يراقبن «أزاهير» في غدوها ورواحها . البقية

تقضى الوقت ساهمة مفكرة ، وقد أضربت عن تلقى دروس الحكمة ،
ثم رأيتها تقوم إلى الخديقة ، وتطيل النظر في مائها حيث تنعكس
على صفحة الماء صورتها ، وشاهدتها والعجب آخذ منهن مأخذه
وهي تقطف الأزهار القانية ، تلون بعصيرها خديها . ثم رأيتها وهي
تصفف شعرها على نحو جديد لم يعرفه من قبل ، ثم لاحظتها
وهي تسير على حافة الغدير ، تتغاید في مشيتها .

وكانت «خلوب» وصواحبها كلما رأيتها تفعل ذلك ، اصططكت
أسنانهن هلعاً ، واعتزمن ألا يتركها منفردة على الإطلاق .
ولما حان وقت النوم ، وتمددت «أزاهير» على فراشها ،
ازدحمت التابعات ، وعلى رأسهن «خلوب» ، حول بابها وتحت
ناقلتها . فأقن أنفسهن حراساً عليها

* * *

وقبيل السحر هبت «أزاهير» من نومها ، ونهضت من فراشها
في حذر ، فوجدت الوصيفات قد استغرقن في النوم ، فقصدت
على الفور إلى الخبايا الذي أخفت فيه تذكارات الأمير ، وأخرجته ،
فكان العبادة السحرية !

وبسطتها على منكبها ، وفي لحظة اخضت عن الأنتظار . . .

الجزء

كان في مستهل العقد الرابع من عمره ، ينتظر شبابه ، وتكتمل فيه الرجولة والحصافة ...

مهوى نواذه : الموسيقى ، في جواهرها ، ومنها يستمد هناة البسال ...

تلح في عينيه وميض الأحلام ، وترى في وجهه سمات من وداعة الروح ...

تمسك بحب الفن ، فوهبه حياته ، وقصر عليه جهده ، ولكن مطالب العيش تناديه ، وليس هو بذى مال فيستغنى عن التكسب . وإذن فلا أقل من أن يطلب الكسب بفته المفضل ...

وكذلك آثر أن يكون مدرسا موسيقيا ، فإنه في قيامه بهذه المهمة ، لا يتبدل الفن بل يعمل على إعزازه ، إذ يسكب روحه ، روح الفنان ، في أنفس طلابه ، فكأنما هو يضاعف بذلك من شخصيته ، وينمي من سلطانه ، ويضيف أعمارا متعددة إلى عمره ...

ويوما جُلبت إليه صبية تحبو إلى العاشرة ، أعبت أهلها في تعلم العزف على البيان ، وكانوا حرصاء على أن تحقق ذلك الفن

الذى أصبح من حلية التمدن الحديث ...
وراضها الأستاذ بأسلوبه وحيلته ، حتى أسلس قيادها ، فأقبلت
تذوق النغم وتألفه ، وتبدل كرمها للموسيقى شغفا أى شغف ...
وكان من عادة الأستاذ أن يقيم فى بعض المناسبات حفلات ،
يدعو إليها أسر الطلاب ، ونخبة من شعبة الفن وأصفيائه ، فيعرض
فى هذه الحفلات نماذج من جهده الفنى ؛ مثلاً فيما يعرفه الطلاب ...
ومرة أقام الأستاذ حفلة ممتازة ، فانتظم عقد مدعويه ، وكانت
أسرة الصبيّة أخوف ما تكون ، لا تدرى ما هو نصيب فتاتها من
التوفيق أو الإخفاق ؟ ...

وبدت الصغيرة فى صف الطلاب ، تكسوها حلة وردية
ساذجة ، وتتميز بوسامة هادئة ، على الرغم مما شاع فى وجهها من شحوب ،
وما تجلى فى عينيها من قلق واضطراب ...
وتتابع الطلاب على المنصة ، يؤدى كل منهم ما طلب إليه ،
ويظفر بتصفيق الإعجاب والاستحسان ...

حتى جاءت نوبة الصغيرة ، نطقت إلى «البيان» ووجهة تنعّر؛ كأنما
قد انسدت على عينيها غشاوة حجبت عنها الطريق ...
فدارت برأسها مذعورة تتلس الخلاص من حرج مؤنس ،
فطالما وجه أستاذها ، قد انتبذ مكاناً من المنصة يخفيه عن العيون ،

واقتر ثغره لها عن ابتسامة رفيقة ، تحمل بين ثناياها الطمانينة
والوثوق ... فتعلقت نظراتها حيناً بعينه ، تستمد من وعييهما
المتألق روح الهداية ووحى الفن ...

وإذا هي ماضية إلى البيان ، وما برحت عيناها موصولتين بعيني
الأساذ ، وجلست على كرمى المعارف ، وامتدت يداها تجري
أصابعها على مفاتيحه ، فانبعث الأنغام تتموّج وتندرج ، وتعلو
وتهبط ، وتسرى في أرجاء الحفل تداعب المسامع في رقة ولطف ...
وكان أمام الفتاة صفحة الموسيقى ، ولكنها لم تلق عليها نظرة ،
بل كانت تعزف ، وهي تنظر إلى أستاذها ؛ كأنها تقرأ على جبينه
الناصع النير مراقب الأنغام ...

وعم الجمع صمت شامل ، وأرهفت الأسماع ؛ لتستوعب ذلك
النغم الشجي ، وتستمره في شغف وإقبال ...
وألفت الصبية نفسها تحيا في ألفاف نشوتها ؛ كأنها في غيوبة
منام ، وتنتقل إلى أفق علوى لا تحس فيه الحاضرين من وجود ،
ولا ترى إلا تينك العينين ، عيني أستاذها ، تنيران لها السبيل .
وبعد حين أحست الصبيّة بأنها تهبط وتيدا من أفقها العلوى
إلى مستقرها الأصيل ، وإذا هي تستفيق من غفوتها الروحية ،
فتجتمعت أصابعها تصافح « البيان » ، إيذاناً بالختام ...

وتعالى التصفيق ، وشمسي الضجيج ، وتخت الحناجر بالهتاف .
لقد فت الفتاة في الجمع حيرى ورجلة ، تسائل نفسها :

ما خطب الناس ؟ ...

وفيم هذه الصيحات ؟ ...

وتحاملت على ساقها ، تمشي في خطاها المتعثرة ، تكاد تنكفي .
فتبادر إليها الجمع يهشونها وينقدون عليها التناء . ودنا منها والداها
في حنو وإتجاج ، يرفان إليها مكافأة النجاح ...

وانتهت الفتاة لنفسها ، والناس من حولها يتحلقون ، فدارت
بعينها تنفذ شخصا بعينه ، فلم تره ... وأطالت البحث والتفقد ،
تخطى بنظراتها جموعا لا يعنينا من أمرهم شيء ...

لأنها تريد أن تسمع كلمة الرضا من فم ، وترى نظرة الاستحسان
في عينيه ...

في تلك اللحظة وهذه النظرة برهان توفيقها ونجاحها ، وليس
في سواهما برهان ...

وأحست دافعا يحدوها ، فانطلقت تشق الزحام ...
واتتهى بها المسير إلى ذلك الركن القصي بجوار المنصة ، ولم
يكن يمر أي من جمع الناظرين ، فوجدت أستاذها هناك ، يقلب النظر
في دفتر الموسيقى في جد واهتمام ...

ووقفت أمامه تُشعره بقدمها إليه ، فما إن أخذها بصره حتى
عشَّ لها ، وتطلعت أساريره ابتهاجا بها ...

وأمسك يديها يهرهما قائلا :

مرَّحى ... مرَّحى يا بنية ... إنه لغوز عظيم ! ...

فأجابته في صوت محتجج النبرات ، وعينا حيرى لا تستقر نظراتها :
أحقا أحسنتُ المزف ؟ ...

— كل الإحسان ...

— شدة ما كان أبي وأمي ياقسين من أمرى ، وهما الآن يرضيان عني ...

فلاطف يديها في رقة ، وقال :

لقد كنت تليذة بمجتهدة وقد وصلت باجتهادك إلى درجة طيبة ...

فشدت على يد أستاذها ، وهى تسائله في الخاح بساذج :

أحقا أبدعتُ ؟ ...

فانفرج فمه عن ابتسامة رحيمة ، وقال :

— كل الإبداع ...

كانت الفتاة ماثلة تجاهه في حلتها الوردية ، كالزهرة الناضرة ...

أشاعت فيها غبطة النجاح يقظة وهراجا ، فأسيغت على طفولتها

رونقا جذابا ... توجهت وجتها ، وتألقت عيناها ، وتجلت فيها

سمات باكرة من أثى المستقبل ، وخصائص لما تحه من حسناء القدا ...

(١٣ — ١٤)

في وقفها وشارتها ورنة صوتها ، يترامى طيف المرأة في أبهى حلالها ،
ومن حولها تتبعث تفحات لطاف من أريج الفتنة والسحر . . .
والقى الأستاذ على فتاته نظرة طيبة صافية ، وقال لها :
إني أعد لك هدية أجزيك بها على نشاطك واجتهادك . .
فتطلعت إليه الفتاة ، وهي تقول في سذاجة الطفلة المحتاجة :
وأنت ؟ . . . ألسنت أحق مني بالمكافأة ؟ . . . وماذا يجب على
أن أمنحك ؟ . . .

فتضاحك الأستاذ ، وقال .

وماذا عندك لي من عطاء ؟ . . .

فواصلت الفتاة حديثها في احتياج الطفولة :

اطلب ما بدا لك . . .

فرنا الرجل إليها فترة ، يحتلى بحياها الوديع ، وقال :

حسبي منك هذا يا بنية . . .

وأخذ يدها يرفعها إلى فمه . . .

فالتمعت حينها بغمضة ، وهي تمنع

إنها لتحس بغريزتها أن قبلة اليد ليست هي المنحة المختارة . . .

إن اليد وإن كانت غضة بضعة ، فهي أعجز أن تمنح الأعز الأغلى !! .

إن اليد لتعيا عن أن تصل بين الروح والروح ، وتجييب

الإحساس بالإحساس...

فلتمنح أستاذها ما تراه جديرا بما له في عنقها من جميل...
وتدانت منه ، واشرايت إليه ، وهي شاخصة البصر ، مهتزة

الأوصال...

وسرعان ما ألقي الأستاذ يديه تحملانها ، حتى دنا وجهها من

وجهه...

فأقبلت شفاته على ثغرها الصغير ، تقطعان منه قبلة هائلة ،

كانت أحسن الجزاء...!

أما ! ...

مات ابنها وهو في سن الأربعين ، وكان رجلا كله نشاط وقوة
وجمال ، يعيش في الدنيا عيشة كفاح وانتصار ... مات فجأة ميتة
بليهاة ! ... بعد أن قهر المرضى والضجر والخمول ، وقد خيل إليه أنه
قهر الموت ولو إلى حين .

وكان وحيدها ... رآته ينمو أمامها ويتزعرع ... من عود
صغير كدُن ، إلى جذع كبير قوى يحمل فوقه الأغصان المورقة
المحملة بأطيب الثمار . وكان عماد بيتها ، ترى فيه جلال الرجولة
وجمالها ، فتحي في كنفه هائلة البال لا تخشى شيئا من متاعب الحياة ،
تفورا سعيدة به وبنفسها . ولكنه كان قبل كل شيء « ابنها » ،
ذخر أمومتها ومهبط حنانها . فلما مات ألقت الدنيا حولها فارغة
لا معنى لها ... ولم لا تكون فارغة وابنها كان الحياة كلها -
الحياة التي تزخر بالحركة والنور ؟ ...

وهجرت المنزل الذي كانت تسكنه معه إلى بيت خرب نازح
عن العمران . وآلت على نفسها ألا تبرحه إلا عمولة على الأضاق ،

حيث تنعم بالراحة الأبدية بجواره ... وكان حزنها في بادئ الأمر يستثير الشفقة في القلوب ، ولكنه تحول على توالي الأيام إلى حزن قاس بغيض ، وانقلبت فيها تلك الوداعة الباكية إلى نخط نائر ، ينثر حوله الحسد والكراهية . فكانت تمسك الساعات الطوال صامتة ، جامدة العين ؛ كأنها تمثال من حجر ، ثم تشور دفعة واحدة تسب العالم وتلعنه ، وتعجب للناس كيف يجدون في الحياة متعة وهناءة ، فتطاوعهم أنفسهم على الضحك والمرح ، على حين أنها خربت كل شيء ، حتى لذة الابتسام ... وكانت تخرج من حجرتها في ملابسها الفضفاضة السود ، محنية الظهر ، تعتمد على عكازتها ، تطوف بالمنزل ؛ فكانها شبح من أشباح الليل يحوس خلال المقابر ...

* * *

وكانت لهذه الأم ، أخت أصغر منها سنا ، تسكن الصعيد مع زوجها . ولم تكن الاختان على وفاق كامل ، وكانت لا تتزاوران إلا للحام . ففي يوم من الأيام ، بينما كانت الأم جالسة في حجرتها ، تعرض همومها ، إذ هبطت عليها أختها تزورها ، وكانت مقابلة فائرة أعصابها صمت ثقيل . وجلست « الأم » في مكانها ، لا تتحرك ، تنظر إلى الفضاء أمامها وهي تسائل نفسها عما دعا أختها لزيارتها .

أحاطت تعزيبها الآن ، وقد أهملت واجب التعزية يوم مات فقيدها . . . أم جاءت أشمت بها ، وتسخر من مصابها . . . وأخيرا ، تكلمت الأخت الصغرى ، فقالت :

« لقد أخطأت في تعزيتي لك ، ولكن لم يكن ذلك عن قصد ، كنت طريحة الفراش - بعد الولادة - أجالد الموت أياما متواصلة في يأس كبير . وقد مر على وقت فقدت فيه وعي . حتى ظن الذين حولي أنه لم يبق لي في الدنيا إلا بضع ساعات . ولكن شاء القدر أن أحيأ ويحيأ معي طفلي . . . »

وأشارت إلى لفيفة في حجرها ، وهزتها برفق ، فتحركت اللفيفة ، وانبعث منها صوت ضعيف . ولم تكن « الأم » حتى هذه الساعة قد أعارت هذه اللفيفة شيئا من اهتمامها ، فلما سمعت الصوت التفتت إليها ، وبدأت تتفحصها بشئ من الفضول .

وعادت الأخت الصغرى تتم كلامها ، فجعلت تروى لاختها دقائق مرضها وعسر ولادتها ، و« الأم » صامتة مشغولة عن حديثها المستفيض بالنظر إلى الطفل ومراقبته ، فرأته قد استطاع بحركات يديه أن يكشف النقاب عن وجهه . وكان وجهها صغيرا طلق الملامح ، يدور بعينه البراقطين حوله في حيرة وتطلع . وقد بهرته انعكاس الضوء اللامع على مختلف الأشياء ، وشغله تباين الأصوات .

وكان أحيانا ينهش ثم يعبس ، وتارة يضحك ثم يبكي ، ويداه
وقدماه في حركة دائمة .

وطال حديث الأخت ، و « الأم » ، ما زالت غارقة في صمتها
وهي في شغل عن كل شيء حولها بما تراقب من ابن أختها الصغير ،
تلك الظاهرة الحية الجديدة التي دخلت هذا المكان الخرب
الحاجع لتشعره بأن في الحياة تجددًا ونشاطًا . وكان الطفل وهو
ماض في مناغاته ، يتعالى بضحكته ويصيح بكائه ، ويضرب الهواء
بيديه ورجليه ، يريد أن يثبت لهذه العجوز التي طحنها السنون
والأحزان ، أنه - على الرغم من ضآلة جسمه - مخلوق عظيم . إنه
الحياة مصغرة تكمن فيه ضجتها وقوتها وبهجتها . . .

وكانت « الأم » ، تنظر إليه فترى فيه صفحة من صفحات
شبابها ، صفحة زاخرة بشئ الذكريات والصور المحبوبة .
وتحولت نظراتها إليه من نظرات فضول عابرة إلى نظرات شغف
عميق ، وأحست عاطفة جديدة تدب في قلبها . . .

ولاحظت الأخت الصغرى أن أختها الكبرى ما زالت
صامتة ، لا توليها طرفًا من عنايتها ، فرأت أن تختصر الزيارة ،
وتغادر البيت . وتحركت تبغى القيام ، فوجدت بللا في ثيابها ،
فصاحت بولدها تنهره ، وبكى الطفل محتجا ، فالتفت « الأم » أن

أقبلت على أختها ، وبسّطت ذراعها ، وقالت :

« ناوليني إياه ... دعيني أغير لفائفه ... »

وأخذت الطفل من حجر أختها ، وجعلت تمششه فاطمأن ، ونظر إليها محلقا : كأنه يحاول أن يستطلع أمرها ... وما إن شعر يديها تضمانه إلى صدرها حتى ابتسم لها ، فابتسمت له وقبلته . وكانت هذه أول ابتسامة عرفها وجهها منذ أن قضى فقيدتها نحبها ...

وهرعت بالطفل إلى حجرة نومها ، فأرقدته على سريرها ، وأخرجت له من خزانة ملابسها لفائف قديمة كانت لابنها الراحل في طفولته ، وقد احتفظت بها على سبيل الذكرى . ثم شرعت تستبدلها بلفائفه المبللة ، ومضت تدور به في الحجرة ، وهي تلاحظه وتناغيه ، حتى أطبق جفنيه ونام .

ودخلت الأخت في هذه اللحظة تستبطن أختها ، فأشارت

لها « الأم » إشارة السكون ، ومضت قائلة :

« إنه نائم ... »

ومكثت الأخت الصغرى في ضيافة أختها الكبرى أسبوعين

كاملين قضتهما الأم بجانب الطفل ، تُعنى به وتُدبّر له . ونشطت للعمل ، وتفتحت شهيقا للطعام ، فاستقام عودها ، وتورد وجهها .

وكانت تخرج إلى باب بيتها تستوقف المارة تحدثهم ، وقد يماجنونها
فتماجنهم ، ويطلب منها بعضهم الإحسان فلا تبخل عليه به ،
وانقلب المنزل الحروب الهاجم البغيض منزلا عامرا بقظا ، كله حرارة
ونور . . .

وبعد انقضاء الأسبوعين ، أعدت الأخت الصغرى عدنها
للرحيل ، ورافقتها أختها الكبرى إلى الباب لتوديعها ، وكانت تسير
صامتة بطيئة الخطا ... وحينما قبلت أختها وانحنى على الطفل لتقبله
رأته يتنسم ، ويمد يديه نحوها ، فأخذته بين ذراعيها في لففة ، وضمت
إلى صدرها واحتضنته ، وكأها تحاول إخفاءه تحت مطرفها ...
وأخيرا رفعت عينها المخضلتين بالدموع نحو أختها ، وقالت
لها في ضراعة واسترحام :
« ألسنت يا أختاه في حاجه إلى من يقوم لك بخدمة
طفلك ؟ ... »

أَبُو عَرَبٍ

في خيمة حقيرة من الوبر . قريبة من ضيعة . عماد بك .
يعيش سليمان ويد ، وزوجته ، وأولاده . وهم قوم من الأعراب
الرحّل ، يرتزقون من تربية الأغنام ، ويتنقلون بها من مكان إلى
مكان ، طلبا للمرعى . وسليمان ، هذا يسميه الناس . أبو عرب ؛
احتراما له ، وخشية منه . وهو رجل عملاق الجسم ، عريض
المنكبين ، له وجه جاف مشدود الجلد ، إذا سار ملتجفاً مطرفه الأيمن
الكبير ، خلته ناقة تنهذى في سيرها . وإذا سمعته يغنى غناء ذا
الرويّ الواحد ، وهو يدخن الطباقي في قصبته . خيل إليك أنك
على مقربة من ذئب يعوى . سريع الغضب ؛ إذا استفزه أحد هاج
هياج الثور الوحشي . سريع الرضا ، إذا لوطف أصبح كالحمل
الوديع ، كله بشاشة وإخلاص .

يحب أولاده السنة حبا عظيما ، فكأنه أم وموم تغمرهم بحنانها
الهائم . ولسكبه ذهب ، في قلبه مكانة أحد أولاده ، فقد التقطه
من الطريق رضيعا ، يكاه يلك من الجوع ، وآواه وعُسي به حتى

تسيرة وترعرع . وأصبح الدوم حامى قطيعه ، وحارس خيمته .
وهو كلب أسود غزير الشعر ، مخيف الهيئة ، تأثرت أخلاقه
بأخلاق سيده ، فاكسب منه العنف فى مواطن العنف ، والحلم
حيث يجب الحلم .

وكان « عماد بك » صاحب الضيعة يقيم مع زوجته وابنه
الوحيد . حامد ، فى بيته القديم الذى يسميه الفلاحون « بالقصر » .
و « حامد » غلام فى العاشرة مدلل ، محبوب من والديه حبا يقرب
من العيافة . يقضى وقته مع خادمه « مبروك » يصطادان العصفير
والسمك ، أو يلعبان على التلال القائمة على حافة التربة ؛ يقذفان
الكلاب بالجصى والحجارة . وقد قامت بينه وبين « ذهب » خصومة
كبيرة ، نشأت من تحرش الغلام بالكلب ، فأضمر كل منهما
لصاحبه العداوة ، فإذا أحس « ذهب » وجود « حامد » - ولو على
مسافة بعيدة منه - نشر أذنيه باهتمام . وجعل يشم الهواء وهو ينظر إلى
جهة الغلام نظرة شرراء مكشرا عن أنيابه متحفزا للهجوم ، ثم يبدأ
ينبح نباحا عاليا . وإذا لمح « حامد » « ذهبا » - وكان فى رفقه من
أتباعه - أمطر الكلب وابلا من الحجارة ، واحتفى بمن معه إذا
هجم الكلب عليه .

وخرج « حامد » ذات يوم ومعه « مبروك » وقصد التلال يلعبان

فوقها على عادتهما . وكانا وحيدين في هذا الوقت . واتفق أن جاء
« ذهب » ، ليشرب من التربة ، وبينما هو منهمك في الشراب إذ رماه
حامد بحجر أدى رأسه . فقفز الكلب متمرا يبحث عن الجاني ، وقد
أحس أنه لن يكون غير « حامد » ، وكان « حامد » محتما مع خادمه فوق تل
عال صعب المرتقى . وعرف الكلب مكان الغلام ، فهجم صاعدا في
التل وهو ينبع نباحا جافا متقطعا ، غير مبال بوابل الحجارة ينهال
عليه بشدة . وأحس الغلام الخطر ، فوهنت عزيمته ، وتخاذلت قواه ،
وجعل يصيح بصوت مخنوق يستنجد بده بروك .. ولكن « بروك » ،
أطلق ساقه للريح ناجيا بنفسه ، ووجد « ذهب » الميدان أمامه
خاليا ، وقد زاده هذا الانتصار قوة وإقداما ، وأوشك أن يصل
إلى قمة التل ، ولم يعد يفصله عن الغلام غير مسافة قصيرة . ورأى
« حامد » الكلب يقترب ، وعيناه تقدحان شررا ، وشعره قائم كالشوك ،
فارتجف ، ولكنه أحس بقوة غريبة تحل فيه ، فوقف مستبلا وقفة
الحندي ساعة الخطر . ووقف الكلب أيضا يحدد عدوه بشرر
عينه وهو يأخذ أهبة لهجمة فاعلة . ومضت لحظة ، والعدوان
واقفان وجها لوجه لا يتحركان ، كأنهما تمثالان أودع فيهما اللتال
أقوى معاني التحفز للشر . وكان أن هجم الكلب بهيمته الأخيرة ، بيد
أن الغلام عاجله بحجر شح رأسه ، وترنج « ذهب » ، ثم نكص على

عقبه وهو يحاول الهوض والهجوم عودا على بدء ، وقد بدأ الدم
الفاتر يسدل على وجهه ويسد ستر الأحمر أمام عينه . واختل توازنه ،
فانقلب ينمرغ على التل متدحرجا من أعلاه إلى أسفله .. هناك
سكنت حركته سكونها الأخير . وحدث الغلام ذاهلا في جثة الكلب ،
ثم أخذ يتبع بنظره طريق الدم المرسوم على التل من قته إلى أصله
نخاله بحرأ من الدماء أو طريقا من اللهب . وشعر بتخادع مفاجئ ،
فجلس على الأرض يرتجف ، وعلت وجهه صفرة الأموات .

وسمع « أبو عرب » ندبا وعويلا منبعثين من خيمته ، وهو
عائد إليها ، فهاله الأمر وتوقع مصابا ، ودخل الخيمة في عجلة وهو
يسأل : ما الخبر ؟ ... فسكت الجمع وأطرقوا . ودار « أبو عرب »
بنظره على من حضر ، فوجد أهله لم يغيب منهم أحد ، فخرج إلى
حيث قطيعه يرعى . فلم يجد نقصا أصابه ، ولكنه أدرك أن ذهابا
لم يخف لا استقباله على مأنوف عاداته ، فعاد إلى الخيمة وصاح في
الجمع :

« أين ذهب ؟ » ...

فلم يجبه أحد ... فقال :

« إذن هو الذي تندبونه ؟ » ...

فأوماً إليه أحد أولاده بنعم . فسأل :
« ولكن كيف مات ؟ أمقتولا ، أم حنف أنفه ؟ »
فتقدمت إليه زوجته في هواة وأخذت تروي له حادثة مصرع
الكلب ، وهو يسمع إليها راجحاً ، ثم ما لبث أن أريد وجهه رويداً ؛
فما إن أتمت كلامها ، حتى صرخ قائلاً :
« أقسم بقرية أبي ثلاثاً لا قتلته ، وبمثل الطريقة التي قتل بها
« ذهب » . . . »

* * *

ومضت بضعة أشهر ، ونسى الناس حادثة الكلب . وأخذ
« أبو عرب » يحوم حول القصر في الخفاء ، كلما جن الليل ، وانتشر
على الضيعة الصمت والسبات ؛ كما يحوم الذئب حول فريسته المطمئنة .
وفي ليلة خرج من خيمته ، ووجهته قصر « عماد بك » ، وهو ملثم
بمطرفه الكبير ، يحمل في صدره طائفة من الأحجار المسنونة
كانت تشغل خطاه في سيره . وسار متسللاً بحذر . ولما دنا من السور
اعتلاد بمهارة ، وهبط إلى الحديقة في خفة الهرة ، وتسلق شجرة كثة
الأغصان ، وكن بين فروعها . ومن ثم جعل يراقب حجرة الغلام
بعيني الصقر الجشع . وكانت الشجرة على مقربة من نافذة الحجرة ...
ومضت ساعة ، ود حامد ، يدخل الحجرة لاعباً ؛ ثم يتركها إلى

رددة المنزل، لا يستقر له قرار في مكان واحد، فجمل «أبو عرب»
يداعب الأحجار في قلق.

وأخيرا جاءت الأم بابنها وحملت إلى السرير، ووضعت فيه، ثم
أشارت له أن ينام، فأمسك الغلام برقبته وانهاه عليها يقبلها
ويحتضنها ويهمس في أذنها، فأخذته بين ذراعيها وسارت به ترضه
وتقبله، وتطيل النظر إليه في حنو وعبادة. وكانت إذا ما انتهت مرة
عادت تحتضنه وتقبله مرة أخرى...

واعتمد «أبو عرب» في جلسته، وجعل يراقبها باهتمام، وراحت
الأم تلاعب طفلها في شغف، وتصفي إلى ضحكاته المرححة الساذجة
كما يصفي الفنان إلى أشهى ألحانه وأغلاها. ثم قامت وهي محتضنة
إياه، وأخذت تطوف الحجر بخطاه هادئة، وتغني له بصوت حنون،
والطفل متعلق برقبته مغمض العينين في طمأنينة عذبة، يردد أغانيها
ويستزيدها...

واحترى «أبا عرب» وجوم غريب وأحس الضيق يغزو صدره
وسقط من يده حجر إلى الأرض دون أن يشعر... وبعد هنيهة،
وقد أحست الأم أن وحيدها قد نام اقتربت في سكون نحو السرير
وأرقدته عليه، ثم غطته وطبعت على جبينه قبلة هادئة، وخرجت
على أطراف أصابعها... ونظر «أبو عرب» طويلا إلى الطفل

وهو نائم مشرق الوجه هدوءاً وغبطة ، كأنه ملك صغير ، فابتسم مضطرباً كأنه يقابل ابتسامة الطفل بثلبها .

وبغتة شعر كأن خنجراً يطعنه في قلبه ، فهبط إلى الأرض مسرعاً ، وأخذ يعدو في الطريق عائداً إلى خيمته ، يتلى اشتموا زاً وكرها لنفسه ... وما إن وصل إلى الخيمة ، حتى هرع إلى والده ، وكان في مثل سن «حامد» ، وأخذه بين ذراعيه وجعل يضمه ويقبله في شعف ، والدموع تسح من عينيه ...

العودة

لأسرة « الحوامدى » ضيعة بالقرب من « بنها » يتوسطها منزل حقير قديم ، إذا ووزن بدور الفلاحين ظهر كبير انخما ، تقيم به امرأة ارتبطت شخصيتها وحياتها به ، فأصبحت كأنها جزء منه لا يتفصل ، هى : « أم زيان » المعجزة التى تسكن الفرن ، وتقوم بحراسة المنزل وتنظيفه . امرأة مجهولة العمر ، قصيرة القامة بحجم نحيف ووجه صغير مكسور بالتجاعيد ، نشيطة فى الخدمة ، لا يهدأ لها قرار . تراها أمام الفرن ، تحرك الأربعة ، وفى كرن الدواجن تطعم الدجاج والإوز ، وفى الزرية تحلب الجاوسة رائحة غالية فى صحن الدار ، وعلى رأسها جررتها التاريخية ، تحمل الماء للماء الأزيار ... وهى فى مشيتها تسير منتصبة القامة ، مرفوعة الرأس ، فى خضة بنت العشرين . وتمز يدها اليمنى إلى الأمام وإلى الخلف ؛ كأنها جندى يسير فى حفلة عرض .

وقديم كان « لأم زيان » دار خاصة ، تبيع بالأطفال ، وزوج مجتهد طيب ، يعمل لرفاهتها وسعادتها ، فكانت تمش سيدة بيتها ، لا تستخدم إلا زوجها وأولادها . ولكن ماها لم يدم طويلا ؛ إذ

ناصرها الدهر العدا ، فخرها زوجها ، عاتلها راحى ذمارها . فكانت
فاجعة تحملتها بصبر عظيم ، وعكفت منذ ذلك الحين على العمل ،
فاشتغلت أجيرة في البيوت وفي الحقول ، واشتغل معها بناتها
وصيهاها الكبار ؛ ليساعدوها على العيش ، ولكنها - لعظم شقتها -
فقدتهم جميعا واحدا بعد آخر ، إلى ابنة في الثالثة عشرة أبقاها لها
الموت بضع سنين ، حتى إذا ماتت زوجت ، وأعقبت « الغالى » عاجلها
القضاء ، كإخواتها وأخواتها من قبل . وهكذا لم يبق « لام زيان »
من أسرتها إلا ذلك الحفيد الصغير الذى تركه أبوه في عهدها ؛
ليتفرغ هو إلى عمله وزوجته الجديدة . والتحق « أم زيان » من
ذلك الوقت بأسرة « الحوامدى » ، فانتقلت هي وحفيدها « الغالى »
إلى حجرة القرن ؛ إذ اتخذتها مسكنا لها .

وشب « الغالى » وترعرع في أرجاء القرن ، فنام على العشب
اليابس والحب ، وجبا على الأرض الصلبة واستنشق منذ نعومة
أظافره رائحة العجين والخيز ، واكتسبت بشرته لونا نحاسيا براقا
كلون الأرنغفة الساخنة . وكَم من مرة — وهو صغير — دفعه
فضول الطفولة إلى ولوج باب القرن ؛ ليتعرف كنه ذلك القرص
الأحمر الملتهب ، الذى يتأجج فى الداخل ، فاتشلتته جدته وهو على
مقربة من ألسنة النار ، قبل أن يندو طعنة لها ...

وكثيرا ما غمس يديه في المعجن ، واطخ وجهه بالعجين ، أو هجم
على الأرعقة ، وهي خارجة من النار ، فزق منها ما استطاع أن
يمزق ، واكتوت أصابعه بحرها ، ثم يجلس بعد ذلك ينتحب ويبرد
يديه بالماء . وعلى الجملة كان « الغالي » شيطانا من شياطين الإنس ،
قد ولى نفسه حاكما مستبدا يبعث فسادا في ملكه الدقيق والنار ...
وقد وهبته جدته عطفها كاملا ، وأورثته حبها القديم لزوجها
وأولادها الراحلين : بل حبها للحياة نفسها ؛ إذ كانت ترى فيه
مناط هناها ، وغاية أملها ، لا تعيش في الحياة إلا من أجله ...

و « لأم زيات » صبر واستسلام عجيب ، يكاد يكون من
خوارق الطبيعة الإنسانية ، مع ما أصيبت به من أرزاء فاجعة
لا يرى على وجهها عبوس اليأس ، ولا ثورة السخط ، ولا تسمع
من فمها كلمة شكاية أو ملل من الحياة . بل هناك بشر دائم طبيعي
متألق في صفاء عينها المسكحتين ، هو بشر الطمأنينة المستقرة في
قلها . ولا يذكر إنسان أنه مر عليها ولم يشاهد تلك الابتسامة
الخالدة مرتسمة على فمها ، تحاول دائما أن تعطىها بذيل خمارها . وإذا
رغب أحد في حديثها وسألها قائلا :

« كيف حالك يا « أم زيان » ؟ ... »

أجابته بصوتها الهادئ الوقور لإجابتها التي لا تتغير :

« ألف حمد وألف شكر لله ... كل شيء طيب في الدنيا ... »
وكثيرا ما يزورها أفراد أسرة « الحوامدى » ، فى « مستعمرتها »
فيجلسون بجوارها أمام الفرن ، يراقبونها وهى تحرك الأربعة
بالمحرك الحديدى ، أو يدخلون معها كن الدواجن يشاهدونها ،
وهى تعجن النخالة وفتات الخبز للطيور ، فيستمعون إليها
وهى تروى لهم أشهر القصص وأطيب النوادر والأخبار . أما
« الغالى » فحولها كالكلب الأمين ، يروح ويحىء خلفها أينما ذهبت
وكثيرا ما ينشبت بذلاذل ثوبها إذا رآها تكثر من التنقل ، خوفا من أن
يفقدها . وإذا أرادت أن تتخلص منه للتفرغ لعملها ، صنعت له
حصانا من أعواد الذرة الجافة ، يركبه ويحرق به فى صحن الدار قريبا .
ولما « كبير العالى » تجرأ على الخروج من « المستعرة » بمفرده
فذهب مع رفيقه الصغار على الأكوام ، وركب الخمر الطليقة ،
وهى تعجن النخالة وفتات الخبز للطيور ، فيستمعون بشغف إليها
وهى عائدة إلى حظائرهما . وتصد زاوية الصلاة فى الهجير ليعاكس
النائم من عباد الله الصالحين . وخرج إلى الحقول يرقص ويردد
مع فتيات الضيعة أغنيتهن المشهورة :
« يا عود الحشيش يا الأخضر ، يا مزرع يا مالى الغيطان يا غنى ... »
وكم انطلقت « أم زيان » إلى الحقول تبحث عنه ، حتى إذا

ما عثرت عليه اقتادته إلى وكرها ، وهو يصرخ منمردا ، ثم لاطفته
بعود صغير من قصب السكر ، تشغله طوال الوقت بمصه . . .
ولما اكتمل له من العمر سبع سنوات ، كان يرافق سادته
الصغار من أسرة الحوامدى ، إلى الحقول ، فيشاركهم فى أكل
البطيخ والخيار . وإذا أزمعوا نزعة إلى القرى المجاورة ، وركبوا
الحمير لهذا الغرض ، جرى خلفهم بدعاه يحث بها الدواب على السير .
وكان « الغالى » لا يرى أباه إلا فى المواسم والأعياد ؛ إذ كان
أبوه قد انتقل بأسرته الجديدة إلى بلدة بعيدة عن ضيعة الحوامدى ،
وجد فيها ربما أوفر . . .

* * *

وحدث أن حل الأب الضيعة على غير ميعاد ، ولما سألته
« أم زيان » عن سبب حضوره — وكانت قد أوجست خيفة منه —
أخبرها بأنه يريد أخذ ابنه ليرسله إلى « القاهرة » ، مخادما فى بيت
أسرة غنية ، فقد رأى أن الفلاحة فى الريف ليست ميدان الكسب
الموفر لأبناء هذا العصر . فهناك فى « المدينة » ينشأ الطفل وأمامه
ألف مهنة يختار منها ما يوافق . هذا فضلا عن حياة الرفاهية التى
يتمتع بها أهل المدن . فقابلت « أم زيان » حديث الأب بالاعتراض
وتوسلت إليه أن يبقى حفيدها . فلم يعبا بكلامها ، وأوضح لها فى

شدة أنها إذا ما نعت في أخذ ابنه قضت على مستقبله قضاء مبرما .
وواجبها الآن أن تسكن شفتها في سبيل هنا حفيدها ، وأخذ يحدثها
حديثا طويلا في وصف تلك الحياة الرعدة التي سوف يجيهاها « الغالي »
في « المدينة » ، وفيها ينتظره من مستقبل باهر . فلم تجد المرأة
لديها حجة تعترض بها عليه ، وأذعنت لحكم القضاء صاغرة ، كما
أذعنت له من قبل . ولكنها بعد صمت مضطرب سألت الأب قائلة :
و هل يغيب عني طويلا ؟ ...

— سوف يحى ليراك كل عام ، ويمضى العيد معك

— و هل تظن أنه يفلح في « المدينة » ؟

— كل الفلاح ! سوف يعود إليك بكسوته الإفرنجية وطرבוشه
المائل وحذاءه اللامع . سوف يعود إليك قتي رشيقا من أهل المدن
لا فلاحا جلفا من أهل القرى ... سوف يأتي إلينا محملا بالنقود والهدايا .
وتخيلت « أم زيان » في تلك اللحظة حفيدها « الغالي » في
الحلة الأفرنجية الأنيقة ، والطرבוش المائل على قنوده ، والحذاء
اللامع في قدميه ، معتليا صهوة البغلة ، وخلفه غلام يجرى بالعصا ،
فلمعت عيناها بدموع الفرح ، ولكنها كانت تشعر في الوقت نفسه
أنهم ينتزعون منها جزءا لا يفصل عن قلبها . فأخذت تبكي وتشق
وهي لا تعرف : أتبكي فرحا لمستقبل « الغالي » أم حزنا على فراقه ؟ ...

وتركها بعد ما وعدّها بالرجوع بعد أيام لأخذ ابنته ، فدخلت
« أم زيان » حجرة القرن ، وأقفلت بابها عليها ، وأسندت ذقتها
بيديها ، وتاهت في أحلام شتى ، ودموعها تفيض على وجهها .
وفي اليوم التالى خرجت قاصدة السوق ، وعادت منه برزمة
من المنسوجات شرعت تفصيلها وتخيطنها جلابيب وقلانس « الغالى » ،
وكانت تسهر الليل أمام مصباحها بخيط ، وفي حجرها الغلام تهزه
وتغنى له أغاني المستقبل البهيجة ، معدة له صفاته حينما يكون سيدا
كبيرا ، له شارب غزير مفتول كشوارب الحكام ، وطربوش أحمر
زاه كطرايش الأمراء ، يهتز زره في الهواء هزة الخيلاء ، وحذاء
ذو صرير عال كأحذية الجنود يسمع صوته من بعيد . وكانت تنظر
إليه نظرات طويلة عميقة . ثم تنهال عليه تقييلا وضما حتى تزججه ،
فيصحو صارخا من النوم ، فتعيده إلى حجرها ، وتلاطفه في
سكون بهزاتها الرفيقة ، تستأنف غناءها له بصوت كله نواح
وشجن .

وأخيرا سافر « الغالى » مع والده إلى « القاهرة » ، وبقيت
« أم زيان » منفردة في حجرة القرن ، ومن الغريب أنها عند
وداعها لحفيدها لم تذرف دموعا ، ولم يظهر على وجهها أى
اضطراب ، بل كانت تضحك وتلاعبه ببشاشة ، وتروى له مختلف

الأفاصيص ، ولكنها لما عادت إلى وكرها حبست نفسها فيه
أسبوعا كاملا ، خرجت بعد نهايته بوجه شاحب ، يشبه وجه من
دفن ثم خرج من القبر حيا . . .

* * *

ودار دولاب الحياة دوره المعتاد ، فعادت أم زيان ، إلى
سابق عملها أمام الفرن تعجن وتخبز ، وفي كنّ الدجاج تقدم
لرعيّتها الطعام ، وفي حظيرة البهائم تحلب البقر وتضع اللبن .
ورجعت إليها بشاشتها ، وظهرت على فها ابتسامتها ، وأخذت تسير
مهرولة في فناء الدار كسابق عهدها ، تشتغل بنشاط واهتمام ، إلا
أن قامتها انحنى قليلا ، وزادت في وجهها التجاعيد . . .
فإذا ما جن الليل ، دخلت وكرها ، وأمضت الساعات جالسة
أمام الفرن ، ينير وجهها بصيص من نار خامدة ، وهي تحدث
« الغلى » متخيلة أنه معها ، تروي له النوادر والقصص ، وتسأله
عما يفعل ، وم كم يكسب ، وهل لبس الكسوة ، ووضع الطربوش
المائل ؟ ... أخيرا تأتي بجلباب من جلايبه وتبسطه في حجرها ،
ثم تهزه بخنان ، وتبدأ تغنى له أغاني المستقبل الزاهر ، ودموعها
تنهمر من مآقيها .

ومضت السنون ، وكرت الأعياد ، ودام زيان ، صابرة

تنتظر عودة « الغالى » . وكانت تخطط له الملابس وتجمع له النقود وتشتري له الحلوى التى يحبها ، ثم تذهب بكل هذا إلى أبيه ليوصله إليه ، فبدأ الآب هذه الهدايا الثمينة ، ويقسمها بين أفراد أسرته . وإذا سمعت أن شخصا أتى من « المدينة » هرعت إليه ، وسألت عن « الغالى » ، فيجيبها : إنه على أحسن حال صحة وسعادة ، مع أنه لم ير ، للغالى ، ظلا فى حياته . وكانت أحيانا تتخيل أنه سيرجع إليها بعد أيام معدودة ، وتقول : إن قلبها أنبأها بذلك وتنعس اليوم الذى يصل فيه ، فتجهز له الملابس ، وتصنع له الفطير ، وتجمع له أعواد الذرة ، ليأكل منها خيولاً مطهمة . وتطلب من رئيس خدم الدواب أن ترسلوا البغلة للغالى ، على المحطة ، ومعها صبي يحمل العصا . . .

واستمرت « أم زيان » على هذا الحال عشر سنين كاملة ، تحيا حياة الأحلام . . .

وأخيرا تحقق الحلم ، وجاء الآب يعلم الجدة بأن حفيدها « الغالى » سيحضر صباح الغد ، فقابلت الخبر بذهول كاد ينقدها الصواب . ولكن سرعان ما استعادت رباطة جأشها ، وانحلت عقدة لسانها عن سيل منهر من الأسئلة ، لم يدرك الرجل عن أيها يجيب . . .

وهرعت « أم زيان » من ساعتها إلى الفرن ، فجهزت لحفيدها طعاما شهيا ، وانتقت له من بين أعواد الذرة - التي كان يلعب بأمثها - عودا مقيبا أعدته له فرسا مُسَرَّجا . ثم اغتسلت وتكحلت ولبست الجديد من الثياب ، وأمضت الليل كله ساهرة تدور في الغرفة لا تعرف ماذا تفعل ، مع شعورها بأن هناك عملا كبيرا عليها أن تؤديه . ثم قصدت قبيل الفجر إلى الفناء ، وجلست أمام بابه مترقبة ظهور « الغالي » على بغلته المظهمة . ولكن النوم عاجلها ، فلم تستفق إلا على حركة البهايم وهي خارجة إلى الحقل وأخيرا ظهر أمامها الأب ويجواره قتي في السابعة عشرة ، له وجه نحاسي . كامد ، خشن البشرة ، ملوئ بثور الشباب ، يلبس الجلباب والمعطف والطربوش ، وله شارب طرير . فتقدمت « أم زيان » في سكون ، وسألت الأب قائلة :

« ألم يحضر « الغالي » يا بني ؟ ... »

فالتفت إليها متاحكا ، وقال وقد أشار إلى الفتى :

« ومن يكون إذن هذا ؟ ... »

فرفعت « أم زيان » رأسها ، وحلقت في الفتى طويلا ، والفتى أمامها يتسم ابتسامة الخيلاء ، ودنت منه وهي تسائل نفسها ، بصوت مرتجف ، وعينين مختلفتين :

« أيمكن هذا هو « الغالى » ، هل هذا ممكن ؟ ... »

فانطلق الأب وابنه يتساحكان ...

وتقدمت « أم زيان » نحو الفتى ، واحتضنته طويلا ودموعها تتساقط على وجهها ... ومن ثم عادت به إلى حجرة القرن
وقدمت له الطعام والحلو . وكانت تقص عليه أحداث حياتها منذ
فارقها ، وكيف كانت تفكر فيه دائما ، وكيف كانت تترقب كل
عيد أوبته لزيارتها . ثم جعلت تسرد له حديث الطيور والبهائم :
ما جدّ منها وما اختفى . ثم استعادت أمامه ذكريات الماضى ،
وذكرته بما كان له فى أحداثه من صنوف الملاعبات
والمعاكسات ... وفى هذه اللحظة وقع نظرها على الحصان
المصنوع من أعواد الذرة . فراجعت ، ونظرت إلى الفتى فإذا به
ينظر بتأفف واشمئزاز إلى المكان الذى يجلس فيه ، وإذا هو قليل
الكلام ، له صوت خشن غليظ ، وحركات شاذة جاقة . فخارت
« أم زيان » فى أمره : كيف ترضية وتدخل السرور على
قلبه ؟ ... وقامت مهرولة نحو صندوقها ؛ وبحث فيه عن شيء
يليق أن تقدمه له ، فلم تجد إلا بضعة قروش جمعتها ، فذهبت بها
إليه ، ووضعتها فى يده وهى تقول :

« خذ يا « غالى » هذا المبلغ وأبسط به نفسك ... »

ففتح الشاب يده وألقى نظرة باردة على النقود . ثم أخذها ووضعها في جيبه ولم يجب . وبعد قليل قام مستأذنا ، وذهب من هوره إلى الحقل لينشد مع الفتيات والفتيان في القرية الأغاني الريفية ، تاركا جدته وحيدة في القرن تحدث نفسها بخجل قائلة : « أهذا هو « الغالي » ؟ ... أهذا هو ابني وحبيبي الصغير ؟ ... » ولم يعد « الغالي » إليها بعد هذه الزيارة ؛ إذ كان يمضي نهاره لاهيا مع رفاقه ، متنقلا بين الحقل وقهوة المحطة حتى إذا أمسى ذهب إلى بيت أبيه فنام .

وطال انتظار دام زيانة على غير جدوى ، ويس الفطير الذي صنعتة خاصة له ... ومرت الأيام وهي تسمع « بالغالي » ، ولا تراه .. وبعد حين دخل عليها الأب ، فوجدها أمام القرن ، مخضنة جلبابا صغيرا من جلابيب حفيدها الطفل ، وعودا جافا من الذرة حصاته القديم . وهي تقبها وتبكي . فعجب الرجل لأمرها . وبادرها بقوله : « أتبكين وقد عاد إليك « الغالي » ؟ ... » فرفعت رأسها ونظرت إليه باستسلام ويأس ، وقالت : « لقد مات « الغالي » من وقت طويل يا بني ... مات منذ غادرنا إلى « المدينة » ... »

الشحاذ! ...

قبل سنتين كنت أسكن في حي الحلبية القديمة ، وكنت أركب
والترام ، دائماً من المحطة الواقعة عند رأس حارة في شارع القلعة ،
بالقرب من أحد المطاعم اللدنية . وقد تعودت أن أرى في أثناء
انتصاري للترام شحاذاً مبتور الساقين ، يرتدى سترة صفراء قديمة من
ستر موظفي الترام ، ويلقى على طربوشه خرقه نالية . وكان مرآه
يشير شفة ، بأعطيه كل يوم نصف قرش وتوثقت بيننا المعرفة ،
فكنت أقطع انتظاري بحديث ساذج معه ، عرفت منه أنه كان من
عمال شركة ، وأصيب بعرض أضرع له ساقه ، فاضطر أن يستجدي
ليعوز أسرته . اختار مكانه هذا بالقرب من المطعم البلدي ، إذ
وجهه افرح دوى من غيره . وكان يراه المارون والمنتظرون جالساً
جسده الخشوع ؛ لا يباح سؤال على إنسان ، فيخالونه ولياً صالحاً
غارقاً في تأملاته الى لا تنتهى . ولا أذكر أنى ذهبت مرة إلى محطة
والترام ، فلم أجد صديقاً شحاذاً هناك ، وقد تعودت أن أراه في
مكانه لا يتغير له وضع ولا شكل ، كأنه جزء متمم للحائط الذى
يستند عليه ، وطالما نظرت إليه ملياً ، فتخيلته صنماً مهجوراً من

اصنام قدماء المصريين ملقى منذ مئات السنين في خرائب والأقصر،
يحف به جلال الفن ووقار القدم. وذهبت يوما إلى محطة «الترام»
فلم أجد الشحاذ هناك... وكانت هذه أول مرة رأيت فيها
مكانه خاليا، فاختلط على الأمر، وظننت أنى ضللت الطريق،
وقصدت إلى محطة أخرى. ولكن المطعم البلدى أكد لى خطأ
ظن وسرت جيئة وذهابا أقطع الوقت منتظرا مقدم الترام، وقد
استولى على شئ من الأسف والضيق. واتجهت نحو المطعم،
وسألت صاحبه.

« ألم يحضر الحاج بيومى، الشحاذ ؟ ... »

... هذا أول يوم تغيب فيه منذ خمس سنين ... أى منذ إنشاء
مطعمى هذا ...

... ألا تعرف السبب ؟ ...

... كلا يا سيدى : مع الأسف ! ...

وجاء الترام فركبته، وأمضيت بقية اليوم على مألوف العادة.
وفى اليوم التالى ذهبت إلى المحطة، وبى شئ من القلق، ولكن
لمحت الشحاذ عن بعد فى مكانه، فارقافى تأملاته. فسرى عنى، ولما
اقتربت منه رفع إلى بصره، وابتسم ابتسامة عارضة، سرعان
ما اختفت ضائعة فى تجاعيد وجهه. ثم طأطأ رأسه من فوره. وقد

لا حظت عليه أنه كان تمتنع الوجه ، عليه مظاهر الإعياء ، فالتقيت إليه نصف القرش ، وقلت له :

« لم تجيئ أمس يا « حاج بيومي » ؟ ...
فأجاب وهو مطأطيء الرأس ، على غير عادته :
« كنت مريضاً يا سيدي ! »

وكان في صوته نغمة حزن ظاهرة ، فقلت :
لقد حُرمت كسبك بلاريب ...
— إن الله لا يترك عبده ...

فأخرجت من جيبي قطعة ذات خمسة قروش ، وتاولته إياها وأنا أقول :

« ربما تجد في هذا المبلغ ، ما يعض لك خسارة الأمس ... »
فرفع إليّ بصره الحائر ، وقد امتلأت عيناه بالدموع ، وتكلم بتلعثم :

« ولكن يا سيدي ... إني ... »

وجاء الترام . فتركت الشحاذة يحدث نفسه بكلامه المختلف المهم ...
واختفى الرجل يومين كاملين ، ثم ظهر في اليوم الثالث . رأيتُه عن بُعد محتلاً مكانه المختار ، فلما لمحتني تحرك زاحفاً يديه . واختفى في الحارة ... أرأيتُ حقاً فهرب مني ؟ ... هذا ما أدهشني . ولما

وسلت إلى المحطة ، درت يعني هنا وهناك ، فلم أر للرجل أترا .
بعض أسوع ، و ، الحاج بيومي ، الشحاذ يظهر يوما ، ويختفي
يوما . وكان كل المحنى عن بعد مقبلا إلى محطة الترام ، هرب من
رجمى . فزدادت حيرتى ودهشتى ، ولكنى أقنعت نفسى أخيرا
بتفاهة الموضوع ، وقلت : لعل الرجل قد أصابه شيء من الخبل .
ثم انقطع ظهوره ثلاثة أشهر كالة ، فكدت أنساه فيما كل النسيان ..
وقصدت يوما إلى محطة الترام ، وما كان أشد دهشتى حينما
رأيت الرجل عن بُعد في مكانه المعروف ، فناجيت نفسى قائلا :
« سوف يهرب منى الآن ! ، ولكنه لم يفعل ، بل كان يرقب مجيئى
بشغف ، فلما وصلت إلى المحطة زحف نحوى ، وصالحنى ببشاشة
وتهلل ، فمجببت لأمره ، وسلمت عليه سلاما طيبا ، وقلت له :
« لقد ظهرت أخيرا يا « حاج بيومي » ... حقا لقد كانت غيبة
طويلة .. »

فأخذ بفرك إحدى يديه بالأخرى ، وهو ينظر إلى الأرض .
ثم تكلم قائلا :

كنت أستجدى فى مكان آخر ..

— اكان ا كثر رجاء من هنا ؟ ...

— بل أقل جدا ...

— وما الذى دعاك إلى ترك محلك إذن ؟ ...
فصمت برهة قليلة ، ثم رفع عينيه البراقتين ، وقال باهجه الحزم
والجد :

كنت أهرب منك ياسيدى ...

— إني لا أفهم مرادك يا دحاج يومى ، ...
وجاء الترام ، فهممت أن أركبه ، وقد تيقنت أن الرجل غبول ،
ولكنه أخذ بطرف مترقى فى لطف ، ورجاء منى فى إلحاح أن
أستمع له . فعدت إلى مكاني ، وقد أغرائنى حب الاستطلاع بإجابته
إلى طلبه . وتكلم دالحاج يومى ، بصوت هادى رزين ، وهو
يداعب لحيته القصيرة ، فقال :

سامحنى إذا كنت قد أسأت إليك ...

— لا أشعر بأنك أسأت إلى مطلقا ...

— بل أجزمت فى حقك ياسيدى ... اسمع حديثى ، ثم احكم
على ... ولكن أرجو أن تكون قاضيا عادلا ... أنذكر
حضورك إلى هذا المكان بعد الظهر بقليل منذ أكثر من
ثلاثة أشهر ؟ ...

— لا أذكر جيدا ...

— أما أنا فأذكر هذا اليوم ولا أنساه ؛ وحوادثه لن تفارقنى

ماحييت . كانت الساعة إذ ذاك قرابة الثانية بعد ظهر ، وكنت
مسنداً للنحاس ، فجئت ونهيتني بإحسانك اليومى الكريم ، فاستيقظت
وقد رأيتك تسير ذهاباً وأوبة ، منتظراً بصبر نافذ حضور الترام .
وكنت مطأطئ الرأس تتأمل مواطئ قدمك . ثم أخرجت محفظتك
وجعلت تقلب طويلاً ما فيها من الأوراق ، وأنت تنظر إلى ساعتك
مرة بعد أخرى . وأخيراً أخرجت ورقة فجعلت تتفحصها باهتمام .
وأقبل الترام فى هذه اللحظة ، فاتجهت نحوه بسرعة ، وعيناك لا
تفارقان الورقة

وهنا توقف « الحاج يوى » ليسبح ريقه ويمسح عرقه ثم تكلم
بصوت مضطرب متمتما :

« وطويت المحفظة ، وأعدتها إلى جيبيك ، ولكن ورقة مالية
سقطت منها وحملها الهواء إلى . . . كانت ذات خمسة جنيهات ،
فهمت أن أناديك ، ولكن يدي لمست الورقة دون وعى منى ،
فشعرت كأن لسانى مسمر فى حلقى . وكنت أراقبك وأنت تركب
الترام بعينين زائغتين ، وبدي على الورقة تخفيها عن أعين الناس .
ولما تحرك الترام ، وابتعد قليلاً شعرت بقوة تدفعنى إلى اللحاق
به ، فزحفت باذلاً أقصى ما أستطيع من السرعة ، وأنا أناديك
والأوح يدي ليقفوا الترم . ولكن لم يعاينى أحد ، واختفى الترام

في لحظة ، وجاءني المعلم عفيفي ، صاحب المطعم ، وقد سمع صوتي ، وأنا أنادي وأصرخ ، وسألني عن أمري فقلت له عل القور :
« لقد كنت أطلب الإحسان من شخص . . . » فنظر إلى متعجبا ،
لأنه يعلم أنني لم أحرك لسانى مرة بسؤال . وعاد المعلم عفيفي ،
إلى مطعمه ، وسكنت الحركة في الشارع ، وعدت لا أرى ظلا
لمخلوق . فأخرجت الورقة المأليه من جيبى باحتراس ، وتأملتيا مليا
في خوف وحذر ، وناجيت نفسى قائلا : سوف نأكل اللحم ،
وننعم بأطاييب الطعام . ولكن بدى ارتعشت ، فأسرعت بإدخال
الورقة في جيبى ، وأنا أردد قولى بعناد : بل أرد النقود غدا إلى
صاحبها . مكثت نصف ساعة فريسة الأفكار المتضاربة . ولم
أستطع أن ألزم مكانى بقية اليوم ، فهرعت إلى دارى ، فقابلتنى زوجتى
وسألتنى عن سبب عودتى مبكرا ، فانتحلت لها عنبرا ، وقصدت
ركننا بجوار النافذه ، وأخرجت الورقة من جيبى ، وجعلت
أتأملها طويلا ، وأنا أناجى نفسى باختلاط قائلا : سوف نطعم
اللحم ، وننعم بأطاييب المأكولات . . بل إني سوف أرد النقود
إلى صاحبها . . وأقبل على نبي الصغار يقبلونى ، وكانت عليهم أسمال
بالية ، تبين تحت تنوعها أجسامهم ، فضممتهم إلى صدري . وبنته
قلت بجمارة : سوف تكتسبون غدا بملايس حر زاهية . فنظروا

إلى " يجب وارتياح . وتقدم أكبرهم وقبلني وسألني في رفق :
أحقا سنلبس الملابس الحر الزاهية ؟ ... فقلت : نعم ، وسوف
تخيطها لكم أمكم . وأعدت كلامي عليهم غير مرة ، حتى اقتنعوا ،
فهبوا فرحين مسرورين ، وأخذوا يرقصون حولي وهم يتصايحون :
سوف نلبس غدا الملابس الحر الزاهية . ثم أسرعوا إلى أمهم
وكانت أمام الدار ، فزفوا إليها البشرى في ضجة وتهلل ، وقدموا
بها إلى " فأكدت لها الخبر ، وصحت فيهم قائلا : وستملثون بطونكم
بأشهى الأطعمة ، فرددوا قولي في هرج ومرج وأقبلوا على
يستأنفون ثقيل والتواثب على صدرى ؛ فكنت أقبلهم والدموع
تغمر وجهي ... وانقضى اليوم التالي على خير ما يزيد . فأكلنا
أشهى الأطعمة ، واكتسى أولادى بالملابس الحر الزاهية . وفي
اليوم الثالث قصدت إلى مكان وقابلتك . ولما سألتني عن سبب
غيبي أخبرتك كذبا بمرضى ، فأعطيتني خمسة القروش إحسانا .
بأنه من هذه الخمسة القروش ... كانت تلمسني في يدي ، كأنها
عقرب هاتجة طياشة . فلم أستطع أن أبقيا في يدي ، ورميتها
جانبا ؛ وغدت من فوري إلى داري وأنا محوم أرعد ، فتلقتني
أبنائي بملابسهم الحر ، وأحاطوا بي ، وجعلوا يطوفون حولي ،
فكانها نار الجحيم تحرق بي . فتخلصت منهم ، وانكفأت إلى ركن

من أركان الحجرة ؛ وجعلت أبكى . وارتاع الأطفال من منظرى .
وأخبروا أمهم فجاءت على عجل ، فادعيت لها أنى مريض ، وأنى فى
حاجة إلى الراحة .

منذ ذلك اليوم لم يهدأ لى حال ، كانت لدغة الخسة القروش
ما زالت تؤلمنى . كنت أرى لىب جهنم يتدلح من أثواب أطفالى ، فلم
أملك إلا أن أتجنب رؤيتهم ، وأحرم نفسى تقبيلهم وضمهم إلى صدرى .
وتواصلت عشرة أيام ذقت فيها عذاب الجحيم . وأخيرا اهتديت إلى
طريقة كان فيها خلاصى ... عزمت على رد نقودك إليك وسألت
زوجتى عما فضل من المبلغ ، فأخبرتني أنه لم يبق شىء ، فقد كست
نفسها ، وكست الأطفال معها ، وقضت بعض الديون ، وخزنت شيئا
من المئونة للنزل . إذن على جمع المال الذى بددناه كله . لا بأس . . .
هذا ما استقر عليه رأيى . ولما كنت قد أقسمت ألا أراك إلا بعد
أن أحصل على المال ، فقد هربت إلى مكان بعيد أستجدى فيه .
وجاهدت فى الاقتصاد ما استطعت ، فتقشفت فى حياتى فوق تقشفتى
الدائم ، وأخلفت وعودى لأولادى ، وأغضبت زوجتى . ولكنى
كنت راضيا عن نفسى ، وبدأت أتذوق حقا طعم الهناء . وكانت
ملابس أطفالى الحر الزاهية لا تخيفنى ؛ لآتى كنت أجمع ثمنها لأعيد
إليك وما قد جمعته كله ، حرام على حلال لك

وأخرج من جيبه صرة معدودة ، لم يلبث أن حلها ورفعها إلى
وهو يقول :

« خذ مالك يا سيدي . خذه وأرحني أراحك الله ! »
فنظرت إلى الصرة المستوحة ، فوجدتها خرقه قدرة تحوى جملة
كبيرة من قطع النقود المختلفة من المليم إلى الريال ، ورآني « ثم يومي »
أحرق في الصرة ولا أمد يدي نحوها ، فقال :
« لقد عددت اليوم ما في الصرة ، فوجدت المبلغ كاملا لا ينقص
مليا واحدا . خذه عذرا هنا أمامي إذا شئت ... »

وكنت مأخوذا بما سمعت ، أنظر بذهول تارة إلى الرجل ،
وطورا إلى صرة النقود ، ولا أعرف ماذا أصنع ؟
فنهني الرجل بقوله :

« سيدي ! ... إذا لم تأخذ نقودك فسوف أرميها في البئر ...
سيكون نصيبها العدم ... خذها وأرحني أراحك الله ،
فعددت يدي ، وتناولت الصرة في صمت ، ووضعتها في جيبى ، ثم
شدت على يده ، وأنا أغتمم :

« أنت رجل كبير النفس يا « عم يومي » ... »
وسرت مطأطأ الرأس ، وأنا أفكر فيما سمعت وفيما رأيت ... »

وكان صديقي راوى هذه القصة بحسنى قوته ويدخن ثمافور
فالتفت إليه ، وقلت :

« أمثال هذا الرجل قليلون يا صديقي ... »

ثم نظرت إلى ساعتى فوجدتها الرابعة ، فقلت :

« إن ميعادنا مع صديقنا سليم ، فى منتصف الساعة السادسة .

أماننا متسع من الوقت ، أليس عندك ماثرويه لى غير هذه القصة ؟ »
فنظر إلى دخان لفافته ، وقال :

أذكر حكاية من عهد التليفنة ... أروك أن تسمع شيئا يتعلق

بذلك العهد ؟ ...

— يروقى جدا ... وماموضوع الحكاية ؟ ...

— الفطائر العشر ...

— ما شاء الله ... هات ما عندك ...

فلم يغير صديقى جلسته ، وكان ينظر دائما إلى دخان لفافته ،
وبدا يتكلم قائلا :

« فى يوم من الأيام عاقبنى معلم الحساب أنا وزميلي دروف ،

بحرماننا طعام الغداء - الذى كنا تناوله فى المدرسة - وقصرنا على

الحبز الخاف . وكان من نظام المدرسة أن يدخلوا المعاقبين بالحبز

الخاف فى حجرة الطعام تقسما مع بقية الآكلين ، ويقفون صفًا

بحوار الحائط ، ثم يوزعوا عليهم الأرزفة ليشمروهم بذل الموقف
وكان عقاب الخبز الحاف يؤلمى أكثر من أى عقاب آخر ، فكنت أدير
ظهري لموائد الأكل مواجهها الحائط ، مضربا عن أكل الرغيف
والتفت إلى زميلي « رءوف » ؛ فوجدته يقضم أطراف رغيفه ،
ويتبادل هو والآكلون المداعبات الفكهة بين فترة وأخرى ، فقلت
عليه ، وقلت :

ما رأيك فى الذهاب إلى الحلوانى بعد خروجنا عصرًا من
المدرسة لنأكل الفطائر اللذيذة ؟ ...

... هذا ما فكرت فيه أنا أيضا ! ...

... إننا لم نَحْرَمَ شيئًا كبيرًا ... هل نأسف على حساء العدس
السكريه الطعم ، أو على طبق الحُضْر المسلوقة ؟ أو على قطعة اللحم
النيئة ؛ كما أنها من المطاط ؟ ...

— أو على نقيع الشمس المدود ؟ ...

وامتلأت فى هذه اللحظة خياشيمنا براحة طيبة ، هبت من الموائد
القرية ، فقضم زميلي رغيفه قضمه جبارة ، وازدردت أنا
ربق فى سكون ... ثم عاودت الكلام فقلت :

سوف آكل عند الحلوانى عشر فطائر ... عشر فطائر بتمامها ...
... وهذا ما عزمته عليه أنا أيضا ! ...

وكان العصر ، فخرجت من المدرسة مصطحبا صديقي « رءوفا ،
ميمعين محل الحلواني وكنت أشعر بخلو معدتي ودوار رأسي ، فأذكر
« شهر رمضان » ، وتشبثي بالصيام فيه وبعد وقت قصير ، وصلنا وأخذ كل منا
صحفة وشوكة ؛ لينتقي الفطائر التي تطيب له . وكان من عادة الحلواني
أن يحاسب العملاء بعد أكلهم ؛ ثقة منه بهم . ورآني قريبا « مراد ،
وكان خارجا من المحل ، فناداني وجعل يحادثني برهة بجانب الباب
ثم ودعني بعد ماضية ، وكاد يزهرق روحى . واتجهت نحو « رءوف ،
فألفيته قد انتهى من أكل فطائره ، ودفع حسابه ، فتناولت فطيرة ،
وجعلت ألهمها بلاذة وشغف ، وأدخلت يدي في جيب صدري ؛
لاستوثق من وجود نقودى ، وجعلت أعدها قرشا قرشا ، فوجدتها
سبعة قروش ، فالتفتُ إلى صديقي ، وقلت :

لا آكل إلا سبع فطائر فقط

— ولم ذلك ؟ . . .

— لأنى لا أملك إلا سبعة قروش

فنظر إلى يخبث ، وغمز لى بعينه ، وقال بصوت منخفض :

بل يمكنك أن تأكل ما تشاء وتدفع لهم ما تشاء . . .

— ماذا تقصد بذلك ؟ . . .

— لاتدقق فى الحساب إنهم لا يعدون الفطائر التي تأكلها ...

فتوقفت عن أكلى ، ولم أتم فطيرتى ، إذ شعرت بغصة تسد
حلقى . . . ووضعت الصحيفة جانبا ، وقلت لرفيق بصوت متهدج :
وهل فعلت أنت ذلك ؟ . . .

— طيعا أكلت عشر فطائر ، ودفعت ثمنها أربعة قروش .
فقبضت على ذراعى ، وقلت بغضب :

أنت تفعل ذلك يا « رموف » ؟ . . . اذهب وادفع مابقى من
حسابك . هيا . . .

— أنت أبله . . . ليس معى نقود مطلقا . . .

ثم تركنى وسار بجوار الباب ، وهو يرمينى بابتسامة كريهة ،
فقصدت من فورى إلى أمينة الصندوق ، وقلت لها :

لقد أكلت يا آنسة سبع فطائر ، وهذه سبعة قروش ثمنها . . .
— متشكرا . . .

ولما اقتربت من الباب ، نظر إلى « رموف » بنجل وارتباك ،
وسألنى قائلا :

ماذا فعلت ؟ . . .

فلم أعره نظرى ، وخرجت وأنا أشعر باشمئزاز وتقزز . . .

المهْدَى المنتظر!!...

« عم متولى ، بائع اللب والفول السودانى والحلوى بائع متنقل يعرفه سكان ، الحلبية ، وما يجاورها من الجهات ، يسير بعلمته البيضاء الطويلة ، وجلبابه الواسع الآكام ، تعلوه الهيبة ، وقد حمل على ظهره قُسْقُسَه العتيقة ، وهو ينادى بمعدد الأطفال أصناف بضاعته بلهجة السودانين ، بصوت أضعفه انقصر والهزم ، إلا أنه لم يزل محتفظا بنبرة الأمر ، فقد نشأ الرجل فى السودان ، وحارب فى صفوف المهديين برتبة قائد فرقة . وقد عاش طول عمره وحيدا ليس له زوجة ولا بنون .

وهو يسكن حجرة صغيرة مظلمة فى عطفة « عبد الله بك » ، لا تحوى من الأثاث غير صندوق عتيق ، وحصير عليه لحاف ووسادة باليان . وعلى الرغم من مظاهر فقره المدقع ، فإن النظافة تحوطه وتحوط كل ما يملكه .

يثوب الرجل إلى يته مضنى من شدة التعب ، وبعد أن يؤدى فريضة العشاء ، يشعل مصباحه الزيتى الضعيف النور ، ويجلس قبالة صندوقه ، ويخرج منه سيفاً قديماً ، فيضعه على ركبتيه ، ويسبح فى

تأملانه الطويلة ، مستعدا ذكريات حياته الماضية ، فإذا ما مرت على خاطره ذكرى « المهدي » رفع بصره إلى فوق ، وأخذ يدعو الله أن يقرب أيام الرجعة ، أيام العودة المنتظرة للمهدي - رافع لواء الدين حيث يحل في الأرض فيطهرها من فسادها . ثم يخفض بصره . ويمسح لجنته المخطئة بالدموع ، يأخذ السيف فيقبله بشغف عظيم . ثم يقوم إلى عشائه ، فإذا ما فرغ دخل فراشه ، ولا يمضي عليه وقت طويل حتى يستغرق في نوم مطمئن يحلم فيه بماضيه الأغر ، ومستقبله الحافل بعودة المهدي . وفي الفجر يقوم فيؤدي صلاة الصبح حاضرة ، ثم يقرأ في أوراد « الجنشاني » وكتاب « دلائل الخيرات » . حتى إذا ما أرسلت الشمس أشعتها محرقة نافذته الضيقة ، قام متمهلا حاملا قفته على ظهره ، ووجهته « الحلية » ؛ ليبدأ طوافه اليومي المعبود .

وهكذا كانت حالة منذ هبط « القاهرة » خمسة عشر عاما خلت ولم يغير شيئا من نظام حياته ، هُدمت منازل ، وأقيم غيرها ، ومات أناس ، وكبر أطفال ، « وعم متولى » ، ولا يعرف من « القاهرة » وضواحيها غير الجهات التي تعود أن يطوف بها . له محلات استراحة في الطريق ، هي محطات يتناول فيها طعامه ويجلس قرة . وقد خص اثنتين من هذه المحطات بمعظم أوقات فراغه فالأولى : مسجد

صغير ، يتناول طعام الغداء بالقرب من بابه ، فإذا أتمه حمد الله طويلاً ودخل المسجد فصلّى فيه ونام . أما المحطة الثانية فبالقرب من منزل « نور الدين بك » ، في « السيوفية » يقصدها دائماً بعد صلاة المغرب . هناك بجوار باب القصر يجتمع حوله لعيف من بوابي المنازل المجاورة ، وخدم منزله نور الدين بك ، ... فيتحدثون عن الإسلام في غابر مجده ، وكيف حلت به الرزايا . هنا يقوم « عم متولى » مشرق الجبين ، فيروى للجمع حديث « الرجعة المقبلة » بلهجة متزنة مهيبية ، وأسلوب نفّاذ قوى ، يأخذ بمجامع القلوب ، فإذا أجمع كله خاشع مبتهج ، يستمع في إقبال وتطلع لذلك الولي الجليل ، وهو يتحدث عن ظهور « المهدي » وتطهير الأرض من مفسادها ، وتوادة الإسلام إلى سالف عظمته . في ذلك الوقت يخرج « نور الدين بك » من باب منزله متوكفاً على عصاه النخية ، فيتقدم نحو « عم متولى » يحياه ويلاطفه ، ويغدق عليه عطية ، ثم يفارقه وهو يسعل سعال الأبهة والكبرياء .

ويأتى « إبراهيم بك » - نجل « نور الدين بك » - وهو شاب مهذار لعوب . في السادسة عشرة من عمره - فيقترب من « عم متولى » ويصبح به قائلاً :

أما زلت تروى وقائع الحروب وحوادث « المهدي »

« عم متولى ، ٢ ... »

... أوروبا وافتخريها ... لقد كنت قائداً لآلاف عسكري ...
فيهم ، « إبراهيم بك ، ما فيه ، ثم يعتدل في وقفته متظاهراً
بالخشوع ، ويزر رسترته ، ويصلح طربوشه ، ويرفع يمينه إلى رأسه
بالتحية العسكرية ، ثم يخرج قرشا من جيبه ويدفعه إلى « عم
متولى ، قائلاً :

« أرجو منك أن تعطيني قليلاً من اللب والفول السوداني بقرش
صاغ يا جنرال ، ١١ ... »

* * *

في عصر يوم من الأيام ذهب « عم متولى ، إلى منزل « نور الدين
بك ، ، جلس بجوار الباب على عادته ، وأخذت الأطفال تهرع إليه
لتشترى من بضاعة كما تفعل دائماً ، وانطلق الخدم يقدون إليه من
مختلف الجهات ، ويلتفون حوله صفوفاً متراسة ، حتى إذا انتظمت
حلقة الاجتماع ، وقف « عم متولى ، يحدث الجمع حديثه المعبود . وبينما
الجمع يستمع مشغولاً بأقواله الساحرة ، إذ أقبل « إبراهيم بك ، وصاح :

« يا جنرال ، ١ ... »

فتوقف الخطيب عن الكلام ، وحول الناس نظرم غاضبين
نحو الفتى المهدار ، يستوضحون الأمر . وتقدم « إبراهيم بك ، غير

مكثرت بمن حوله ، وأتم كلامه قائلا :

« ... والذى يريد أن يرنالك ، فأرجو منك أن تقبني ! .. »
 فأصف الحفل لهذه المباحثة ، وخرج « عم متولى » من الحلقة ،
 حاملا قفصه على ظهره ، ومشى مشيقا الحادثة متجها نحو الباب ،
 بعد أن شيع أتباعه المخلصين بنظرة كملفت واعتذار . وتبع
 « إبراهيم بك » إلى حديقة القصر ، واخترقا معا طريقا طويلا انتهى
 عند مدخل المنطرة ^(١) حيث كان « نور الدين بك » ينتظرهما جالسا
 على مقعده الكبير . فأقبل « عم متولى » مسلما فأجلسه « البك »
 بحولاه على الأرض بعد أن صرف ابته ومضت فترة صمت صغيرة
 كان يردد أثناءها « عم متولى » بصوت خافت شكره لله وصلاته
 على النبي . وأخيرا تكلم « نور الدين بك » فأخبر « عم متولى » بعد
 مقدمة قصيرة أن السيدة الوغور والمدة كثيرا ما جمعت بأخباره
 وصفاته ، فأحب أن تتعرف إليه ، تستمتع بأحاديثه الدينية الجليلة
 وتواريخه الشائقة عن الإسلام . فاختلج قلب « عم متولى » سرورا
 لما عليه من أن شهرته قد اخترقت جدران المنزل ، ووصلت إلى
 آذان السيدات ربات الحدور ، وقام « نور الدين بك » متجها نحو
 جناح الحرم ، وسار خلفه « عم متولى » واخترق كلاهما مسمى

(١) هي المرونة « بالاملاكة »

عريضا ، وولجا بابا ضخما ، يوصل إلى حديقة السيدات ، ثم صعودا
درجات شرفة مظلمة ودخلا ردهة عظيمة لم يكديطأد عم متولى
عنتها حتى صخرته غفامتها ، فامتلا قلبه بالروعة والخشوع ، إذ أنه لم
يرحى فى قصر المهدى ، قاعة تماثلها اتساعا وغفامة ، وفيما كان
عم متولى ، مستغرقا فى دهشته طرق سمعه صوت تسوى ضعيف
يرحب به ، فالتفت ناحيته فالتى ربة القصر جالسة غير بعيدة منه
تدخن على متكأ كبير ، بجوارها تابعة واقفة ، فإذا بها سيدة مقوسة
الظهر ، بمجدة البشرة ، تضع النظارات الذهبية على عينيها ، وتلبس
لبؤسا قاتما . فتقدم نحوها وقبل يدها النحيلة ، ودعا لها بطول العمر
ودوام الخير . ولما تم . التعارف بينهما تركهما نور الدين بك ، وخرج
لشأنه . وتكلمت السيدة فأظهرت له عم متولى ، سرورها بمقدمه ،
ورغبتها فى سماع أحاديثه تخفف من الرجل من بصره ، وأخذ يجمع
فى فكره رواياته وحوادثه ، ثم رفع رأسه ، وبدأ يفيض بما عنده
بلسان طلق واهجة مؤثرة خلبت لب السيدة . فلما أتم حديثه غمرته
بغلاء كبير لم يكن يحلم به ، وأحاطته بضروب من الإجلال أذهلته
وأخجلته ، فخرج ولسانه يردد كلمات الشكر والولاء لها ولا صرتها .
وما كاد يصل إلى حديقة الحرير ، حتى أقبلت عليه طائفة من
الخادومات ، أخذن يحمن حوله ، ثم جملن بتبركن به ما سمحات

أيديهم بجلبابه ، وطلبن منه أن يبيع لمن شيئا من بضاعته ، فجلس على الأرض مغتبطا ، وفتح قفقه العتيقة ، وأخذ يبيع لمن حتى نفد كل ما عنده . فقام من فوره إلى الجامع وصلى أربعين ركعة ؛ شكرا لله على عطيته الجزيلة .

منذ ذلك اليوم أخذ « عم متولى » يقصد دار « نور الدين بك » ، حيث يُقَابَل فيها بالترحاب والإجلال ، وتُصدق عليه النعم الوافرة . فتغير حاله ، وصار يمشى مشدود القامة ، لا يتكلم إلا بصوت جهورى . واستأجر غرفة حسنة الموقع ، جديدة الأثاث ، واستبدل بالجين والكرات والفجل : الأرز والخضر كل يوم ، واللحم مرتين في كل أسبوع . واستطاع أن يضخم عمامته ويطلها ، وأن يوسع أكمام جلبابه ، وأن يلف حول كتفه « طوقا » من الكشمير الرخيص ، أن يحتذى المركوب الأحمر اللامع ، ويتمنطق بالحزام الحريري بنى الهداب الطويل ، ثم ترك رويدا حرقه البيع ، وتخلص من حياة لطواف المتعبة ، ونعم بالنوم الطويل الهنيء ، وجعل يتصدق على لفقراء بالعطايا الطيبة ، فعُرف بينهم بنصير البائسين . وأمكنه أن ذهب إلى المساجد في أوقات فراغه ، ليحضر دروس الوعظ والإرشاد ، فيتسنى له أن يلقيها بعد ذلك على مسمع من الهائم والدة

نور الدين بك .

وذاع صيته في الحى ، قهاس الناس به ، وجعلوا يتناقلون
أخباره . لقد اختفى شيخ « عم متولى » ، بائع اللب والفول السودانى ،
رجل الفاقة والضعف ، وحل مكانه « الدرويش الكبير » . . .

• • •

وبينما كان رهط من أتباعه جالسين أمام دار « نور الدين بك »
منتظرين حضوره ، تكلم أحدهم قائلا :
« انظرون يا جماعة أن « عم متولى » رجل صالح فقط ، يحسن
التحدث عن الإسلام فى أسلوبه البليغ ؟ ... »
فسأله أحدهم :

« إذن من تظنه يكون ؟ ... »

فأجاب الرجل فى تحمس :

« إنه ولى من أولياء الله ... قطب من الأقطاب العظام ! »

— ومن أعليك ؟ ... »

— آدم النظام فى عينيه قليلا ترنورا غريبا يشع منهما ، وهذا

دليل الولاية ...

ثم تحنن وقتا ، وانحنى عليهم بهمس :

« لقد حدث لى معه حادث لما أخبركم به خشية ألا تصدقونى !! ... »

فقال الجمع وقد تدانوا حوله :

« تكلم...! تكلم...! »

كنت أسير معه مرة في حارة « سيدى شاويش » ، والوقت مساء لا ينير الحارة إلا مصباحان من النقط نورهما خافت ضئيل... وبغتة هب الهواء شديدا فأطفأ المصباحين وإذا نحن في ظلمة حالكة ، فاعترائى جزع مفاجيء ، وأمسكت يد عم متولى ، وشدت عليها . فقمقم : لا تخش شيئا ، نحن في حماية الله...!

وبينما الجمع يصغى لحديث المتكلم : إذ بدا رجل من الحلقة ، وأنشأ يقول :

« الآن يقسرونى ، وقد سمعت حديثكم ، أن أجهر بما أعله
عن ذلك الولي الصالح الذى عاشرتاه كثيرا ، ولم نعرف من حقيقة
شخصيته إلا قليلا... »

فحول الجمع أنظارهم إليه ، وقال له أحدهم فى شوق وتطلع :

« وماذا تعرف من شخصيته ؟...! »

فقال الرجل بصوت حيس ، وقد احتقن وجهه :

« إنه المهدي... المهدي المنتظر...! »

فاشرأبت الأعناق للرجل ، وتهاشم الناس :

« المهدي... المهدي المنتظر...! »

وتابع المتكلم حديثه بلمحة السابقة ، وصوته يرتجف انفعالا :
« لقد شاهدت سيف النبوة في صندوقه ، ولما لمسته بيدي
استطعت أن أشفي ولدي ، ولدي الذي عجز الأطباء عن مداواته
وكان على شفا الهلاك . . . »

واندفع الناس يتسابقون في سؤال الرجل ، وانطلق الرجل
يحييهم في إسهاب وتفصيل .

وكرر اللفظ ، وازدحت الحلقة بجموع جديدة جاءت تسأل
ما الخبر ، وتصفى إلى حديث المتكلم عن سيف النبوة وكرامة
« المهدي » الذي بعثه الله ثانية هاديا للبشر .

وظهر في ذلك الوقت « عم متولى » من بعيد ، ولمحه الحشد ،
فهدأت الجلبة ، وأسرع الناس يسعون له طريقا بين صفوفهم
المتراصة .

وجاء « عم متولى » يسير بمشيته المستدة في جلال ووقار ،
ويتسم لمستقبله ابقسامته الحلوة الهادئة ، فخشع الناس من حوله ،
وأقبلوا عليه متزاحمين ، يقبلون أنامله وأطراف وشاحه .

وتقدم الرجل الذي لمس سيف النبوة وقال :

« يا مولاي ! يا منقذ ابني من الهلاك ! لقد عرفناك بالرغم
من تسرك ، فأنت « صني الله » بعثك سبحانه لهداية البشر ، أنت

خليفة النبي، أنت، المهدي المنتظر، ا

لجودق « عم متولى ، فى وجه الرجل مدهوشا ، وقال :

”ماذا تقول یا رجل؟... اأت تهذی؟...“

— لن تستطيع إخفاء شخصيتك الكريمة عنا بعد اليوم ، نعم

أنت « المهدي » ، خليفة النبي ، وحامل كلمة الحق بين الناس ...

... اسکت... اسکت... فلیس لی هذا الشرف

...! 

— ألم تشف ابني من الهلاك ؟ ...

...isti...

وتقدم الرجل الذي روى حادثة الحارة المظلمة ، وقال :

« ألم تستر الحياة بوجهك المضيء...؟ »

1951... 1951...

وقال المتكلم السابق :

« إن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - زارني في الرؤيا ،

كشفت لي عن شخصيتك ا...

فهمهم « عم متولى » فى صوت ضعيف ، وقد استند إلى

منتخب جوارہ :

• أبو بكر الصديق كشف لك عن شخصيتي ١٩.....

ولاذ بالصمت وقتنا ، وهو يحرق أمامه ؛ ثم أخذ يقول في
صوت المحدث نفسه :

« يا أولادى !... المهدي رجل عظيم ، أجل منى وأكبر...
ما أنا إلا عبد صالح من عباد الله !... »
ولم يطل جلسته ، بل عاد إلى داره مبكرا ، وهو غارق في
أحلامه...

ولم يكذ يتنفس صبح اليوم التالي ، حتى سمع دغم متولى ، طرقة
على بابه ، فقام يستجلى الخبر ، فإذا هو برجل معصوب الرأس ،
هزيل الجسم ، يدنومه ، ويتعلق بشيابه ، ويئن مستعطفا :
دعنى ألمس سيف النبوة من يدك الطاهرة :
— سيف النبوة ؟ ...

— خلصنى من آلامى يا مولاي ... أشفق على مر يدك الضعفاء
يا خليفة النبى العظيم . . .
وأدخله دغم متولى ، داره ، وأبقاه فى رعايته اليوم كله ، وهو
يقرا على رأسه طائفة من الأوراد . ولما دنا المساء أرقده بجواره ،
وسيف النبوة تحت رأسه .

وطلعت شمس اليوم التالى على الرجل المريض ، فألقى نفسه
مفترحا الصدر ، وفورا النشاط ، على حالة من الصحة لم يعهدها من

قبل ، فقام إلى « عم متولى » وأهوى على يديه يشبههما لثما ، وصوته
يجار بالشكر والدعاء ...

ومضت الأيام ، فأصبحت دار « عم متولى » كعبة الناس من
كل صوب ، يفصدونه استشفاء من أمراض أبدانهم ، ووساوس
نفسهم . وقل « خروج » عم متولى ، من منزله . فكان يقضى فيه
جل وقته تائها فى أحلام لا نهاية لها ، فإذا صبحا من هذه الأحلام
أخرج سيفه ، ووضع على ركبتيه ، ثم انطلق يحدق فيه بذهول ...
ويوما رأى « عم متولى » السيدة الجليلة والدة « نور الدين بك »
تأتى لزيارته فى حفل من توابعها ، وما إن شاهدته حتى ركعت
أمامه خاشعة ، وأخذت بذيل جيبته ، وجعلت تقبلها وتقول :
« يا خليفة النبی العظيم ! ... لقد جئتكم خاضعة ذليلة ، أطلب
رضاكم ! ... »

منذ ذلك اليوم حبس « عم متولى » نفسه فى حجرته ، لا يبرحها
قط ، وكان تارة يستقبل زواره ، وطورا يقفل باب الحجرة بالمفتاح
ولا يدع أحدا يقربه ، ويجلس مسندا ظهره للحائط ، ويسبل
جفنيه . ويقضى على هذه الحال ساعات طوالا ، ثم يهب بفته من
خفوته ، وهو مضطرب مخوم ، فيجر دسيفه من غمده ، وينطلق طاعنا

الهواء هنا وهناك ، وهو يقفز في الغرفة صائحا بالشياطين أن
اخشوا . ويظل كذلك حتى يسقط على أرض الغرفة فاقد الوعي
وكثيرا ما سمعه الجيران يصبح هذا الصياح ، فيعرفون أن
الولي الصالح في ساعات خلوته ، يتأجج أسرار العظام ، فيتجمعون
حول بابه مرفعي الأذان ، تسرى في نفوسهم الروعة والإجلال .
وظل د عم متولى ، على هذا الحال بضعة أسابيع .

وكان أن شوهد مرة يخرج من حجرته مهر ولا مشعشع الشعر
وعيناه متقدتان كالجر المسعر ، يلوح بالسيف يمنة ويسرة ...
وانطلق إلى القهوة القرينة ، واندفع يخطب بسيفه في الجالسين ،
ويصرخ فيهم أن اختفوا أيها المردة الخاسرون ... فتألب عليه
الناس بمنعونه .

وخر الرجل أخيرا بين رجال الشرطة ، وهو يهتف في صوت
ضعيف قائلا :

« الحمد لله ، لقد أدبت رسالتى . وأنتم جهادى ... »

وتخاذلت قواه ... !

حَارِسُ الْجُرْنِ ! ...

أعرف « الشيخ جمعة » منذ كنت طفلاً صغيراً ... منذ كانت الأيام لهواً ومسرة . منذ كانت الحياة هبة خيالية من قساوة العقل أعرف « الشيخ جمعة » منذ ذلك العهد . وهو على حاله لم تتغير ملامحه ، ولم يتبدل حديثه . أعرفه وقد كان يروي لي قصة « سيدنا سليمان » وما جرى له مع النسر الهرم ، الذي عاش ألف ألف سنة . تلك القصة التي مازالت أسمها منه الآن بتفاصيلها وعباراتها ، فأذكر عصر الطفولة الجميل ، عصر السذاجة الطاهرة . لقد كبرت ونما عقلي ، فأصبحت أجالس « الشيخ جمعة » لآلهم بوقتي معه ، فأستمع لقصصه الخرافية ، بلذة مصحوبة بهكم ، وكنت فيما مضى أجلس قبالة وعيناي تخلقتان في وجهه — ذلك الوجه المخطط بالتجاعيد — أرقب شفتيه الهادئتين ، ترسلان الألفاظ مكانها السحر الخلال . ولم أكن أقابله إلا مرة في العام ، وذلك حينما أذهب إلى الضيعة لأقضي بها وقتاً للراحة . وقد مرت السنون الطوال ، وتغير كل شيء على الأرض ، إلا « الشيخ جمعة » ، فهو هو ، الرجل ذو العمامة الحمراء ، والجلباب الواسع الأكم . هو ذو العينين البراقيتين ،

والابتسامة العذبة ذو المشية المتمهلة ، والصوت الرقيق ... هو الذى يقوم من النوم مبكرا ، ميمها صوب الجامع ؛ ليؤدى فريضة الصبح قبل شروق الشمس . وهو الذى يقضى معظم نهاره فى المصلى الواقع على شاطئ الترعة ، يسبح ويقرأ الأوراد ؛ ويؤدى الفرائض .

إلى ذلك المصلى كنت أذهب ، فأجلس بجواره وأستمع له ، وهو يقصّ على حكايات « السيد البدوى » الذى حارب الجيوش ، قبل أن يولد . وقصة جذوة النار التى طارت من جهنم وحلت بأرضنا منذ آلاف السنين ، فأرسل الله عليها ماء البحور كلها لتطفئها وتمنع أذاها ، وهى مازالت متأججة كما كانت ، تنذر الناس بشر عظيم . لأنسى إلى اليوم تلك النظرة المملوءة بالاسترحام وذلك الوجه المستعطف الباكي ، وهو يقول :

« إذا كانت جذوة النار الواحدة لا تستطيع بحور العالم جميعها . أن تخمدها ، فكيف تكون جهنم التى أعدت للكافرين ؟ »
وكنت أحل له فى بعض الأوقات « كتاب ألف ليلة وليلة » ، وأقرأ له حكاية « السندباد » وحكاية « مدينة النحاس » . فكان يصغى فى شغف إلى حديثي ، وابتسامته العذبة تفرق على وجهه ، وإذا ما قرأت له قصص « هارون الرشيد » قال :

« هذا ملك من ملوك الإسلام حارب الجن والإنس معا... »
وإذا ما رويت له من شعر « أبي نواس » أو « عمر بن
أبي ربيعة » في الغزل ، قال :

« هذا شعر سيدي وعبد الرحيم البرعي ، يدح الحضرة الإلهية ،
يسمع الشعر ، وهو مأخوذ بطلاوته وورثة رويته ، مسخود بما
فيه من المعاني التي كان يحملها دائما على حمل التمجيد لله عز وجل ،
فيتهزأ به ويتلوى خصره حينما ترن الكلمة الخلافة في أذنه ... »
فإذا سافر « الشيخ جمعة » إلى « القاهرة » يزور الأولياء كان
ميتة في منزلنا . وكثيرا ما كنت ، أطلبه بالإجابة عن أسئلة علمها
بعيدة عن أفق تفكيره ، فكان يجيب عنها في سذاجة وسهولة
عظيمنتين .

قلت له مرة ، وكان الوقت مساء ، وقد أشرت إلى مصباح كهربى
أمامنا :

« انظر يا « عم جمعة » إلى هذا المصباح الجميل ، وكيف يضيء
وينتطفئ بهذه السرعة الغريبة ، ألا ترى ذلك دليلا ساطعا على تقدم
الإفرنج ومهارتهم ؟ ... »

فلبث مليا ينظر إلى المصباح ، ووجهه المشرب بحمرة العافية
لا يحتلج ، ثم قال :

« اعلم يا بنى آدم هذه أسرار يعلمها الشياطين ، ولا يعلمها المؤمنون . والشياطين توحى بأسرارها للكفرة ... إن لهم الدنيا ولنا الآخرة ! ... »

ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء ، وهو يقول :
« الحمد لله الذى جعلنا من المؤمنين ! ... »

ولم يكن يفارق المنزل أثناء وجوده فى « القاهرة » ، إلا ليزور المساجد وضرائح الأولياء . أو ليشترى الصابون والبن والسكر لزوجه . وكان إذا دخل الجامع يهرع إليه الناس من كل صوب وفتح يقبلون يده ، ويلتفون حوله يستفتونه فيما يعرض لهم من مسائل الدين ، فيجيبهم ويفتحهم فى طلاقة ويسر .

لقد كان « الشيخ جمعة » فيما مضى خفيرا لجرن الضيقة ، يحمى الغلات من اللصوص ، ويقرع الصفيحة بعكازته العتيقة إرهابا للعصافير وكانت له ظلة من فروع الأشجار ، أقامها بجوار شجرة النبق الصغيرة يتفيا ظلها . فتقيه مطر الشتاء ، وشمس الصيف . هناك ينام نوما هادئا طويلا ، معتمدا على الله فى حراسة الجرن ، فإذا صاحبا ، وجاء وقت الأصيل ، قصد إلى الترحة ، وجلس على حاقها يراقب نساء بلدته ، وهن يملأن جرارهن ، فيبادلن ألوان الأحاديث ولد « الشيخ جمعة » أوقات صفو كثيرة يتمتع فيها نفسه فيعارب

للغناء ، ويلتذ بسماع المزمار ذى الصوت الحنون . . . وعندما يحس
وطيس الزمر والغناء . ويشد نقر الطبول ، يقوم « الشيخ جمعة »
تمتلكه النشوة ، فيرقص فى غيربة وصمت ، وبده رافعة عكازته
تلوح بها فى الفضاء .

والرجل حديث عن أيام شبابه لا يمل السامع . فكثيرا ما انطلق
يصف هذا العهد ، ووجهه مشرق بنلك الذكريات الخالية ، وعيناه
تلمع فيهما أحلام الفتوة والصباء ، يفيض فى ذلك كله بنلك السذاجة
الريفة الصافية . فإذا ما أتم حديثه تهد من أعماق قلبه ، والابتسامة
العذبة تتضال رويدا على شفتيه ، ثم يقول فى حسرة :
« يا الله حسن الختام . . . »

الفهرس

الصفحة	
٣	١ — دنيا جديدة ١
١٥	٢ — شيخ الخفر
٢٧	٣ — المستعين بالله السكاكين هاردي ،
٦٩	٤ — تأمين على الحياة ١
١١١	٥ — ذات اللثام
١٤١	٦ — الشيطان يلهم ١
١٨٩	٧ — الجزاء ١
١٩٧	٨ — أم ١
٢٠٣	٩ — أبو عرب :
٢١١	١٠ — العودة
٢٢٣	١١ — الشحاذا ١
٢٣٧	١٢ — المهدي المنتظر ١
٢٥١	١٣ — خفير الجرن

مستند الطباعة والنشر
مكتبة الآداب وحلقتها بالجامعة ٩٩٢٧٧
٤٩ ميدان الأوبرا - دمشق ٩٥٠٨٦٨
الطبعة الممنوعة جسيمة
" شركة الشاويش بالعلمية الجديدة "

To: www.al-mostafa.com